



المكتبة الصغرى



١٧

من أمهات الكتب العربية



معرض كوكيل

مِنْ أَمْهَاتِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيَّةِ

الْعَوْنُ عَلَى الْوَكِيلِ

الطبعة الأولى
جمادى الأولى ١٣٩٦هـ
مايو ١٩٧٦م

الفهرس

الصفحة

٥	هذا الكتاب
١١	تفسير القرآن للقرطبي
١٧	المجازات النبوية للشريف الرضي
٢٣	الجامع الصحيح للإمام البخارى
٢٩	البيان والتبيين للجاحظ
٣٥	يتيمة الدهر للشعالبي
٤١	معجم الادباء لياقوت
٤٨	آداب الكاتب لابن قتيبة
٥٤	الامالى لابی علي القالي
٦٠	نفح الطيب للمقري
٦٧	الاغانى للاصفهاني
٧٣	اساس البلاغة للزمخشري

٧٩	لسان العرب لابن منظور
٨٦	المستطرف للإبشيهي
٩٣	شفاء الغليل للخفاجي
٩٩	العمدة لابن رشيق
١٠٥	احياء علوم الدين للغزالي
١١١	بدائع البدائه للأزدي
١١٦	مقامات بديع الزمان والحريري
١٢٢	جيش التوشيح لابن الخطيب
١٢٨	رحلة ابن بطوطة

هذا الكتاب

منذ صدور العدد الأول من هذه « السلسلة » .
« المكتبة الصغيرة » ، بعنوان « توثيق الارتباط بالتراث
العربي » .. كان عليها أن تستوحي من هذه المقدمة ..
أو هذا العنوان ، بعض اتجاهها .. فكان أن التفتت الى
التراث ، على نحو ما ، يتفق وظروفها وحجم إصداراتها ..
ومن هذا المنطلق صدر من أعدادها أمثال : « جبل طارق
والعرب » و « كعب بن مالك » و « أبو محمد البطال »
و « أم عمارة » و « أبو دلف » و « عبد الحميد الكاتب »
و « كرائم النساء » و « بنو الأثير » .. الخ .

ولكن .. كان هناك شيء هام .. لم تفعله بعد ..
هو التعريف ببعض كتب التراث الهامة أو بعض أمهات

الكتب العربية التراثية •• وحينما أقول : بعض ، لا كل ••
فانما أتوخى ، أن أكون واقعيا ، لأن التعريف بكل •• بل
حتى بجّل كتب الأمهات ، مطلب صعب •• أو فلا أقل انه
مطلب واسع ، لا يتسع له حجم اعداد « المكتبة الصغيرة » ••

اذن فلنقف عند بعض تلك الامهات ، بقدر ما يتاح لنا
من فرصة الوقوف •• وبالقدر الذى يصح أن نجيب به على
ذلك السؤال الخالد ، الذى طالما يوجهه الشداة والناشئون ،
بل غير الشداة والناشئين أيضا ، من الراغبين فى مزيد من
المعرفة والثقافة ••

ذلك السؤال الذى يقول قائله : ما هى كتب التراث
التي تنصحنى أن أقرأها أو أتصفحها أو أرجع اليها حينما
بعد حين ؟

أو ماهى الكتب الأمهات فى التراث العربى •• ؟ وقد
تختلف صيغة السؤال •• ولكن لا يختلف المحور •• وهو
الرغبة فى التعرف على أهم الكتب العربية التى يستطيع
المثقف اقتناؤها •• ليقراها ، أو يرجع اليها ، أو يدمن النظر
فيها •• أو يزود بها مكتبته ••

ولقد وفّر الأستاذ الكبير « العوضي الوكيل » للمكتبة الصغيرة .. ولقراءها الاجابة على مثل ذلك السؤال ، بخير ما يكون الجواب ، شمولاً ، وتنوعاً ، وجمال عرض .. متناولاً الكتب الأمهات فى أبرز جوانب المعرفة .. فى الدين .. واللغة .. والأدب .. والتاريخ .. بحيث يصح أن تكون هذه الكتب ، نواة مكتبة منزلية قيمة لمن يهتم بتكوين مثل هذه المكتبة فعل ذلك بقدر ما وسعه اليه سبيل .. وبقدر ما اتسع اليه حجم هذه السلسلة ..

أريد أن أقول بعبارة أخرى ، ان التعريف ، لم يتناول كل الكتب الامهات ، فذلك - كما اسلفت - مطلب صعب ، وانما تناول منها عددا جيدا .. فى عرض جيد .. هو عرض الأستاذ الفاهم الدارس ، المطلع ، الذى اطلال صحبته لمثل هذه الكتب .. وتوثقت بينه وبين مؤلفيها صلات ألفة ، مهما باعد الزمن بينه وبينهم .. تظل صحبته لهم قائمة ..

ولا غرو ان اطلال الأستاذ « العوضي الوكيل » ملازمته لهذه الكتب .. فعرفها معرفة الخير الفاحص .. فقد تعرّف اليها منذ صدر شبابه .. أيام دراسته في « دار العلوم » ،

هذه الدار التي عرفت باصالتها وحسن عنايتها باللغة العربية وآدابها وثقافتها • الى جانب اهتمامها بثقافة العصر ، وحسن مسيرتها لحضارته ••

وقد تخرج الأستاذ « العوضي الوكيل » من تلك الكلية في عهد ذهبي من عهودها ••

بيد أن الأستاذ « العوضي الوكيل » ، مع ذلك اسم شهير في الأدب المصرى الحديث •• فهو من شعرائه المعروفين ومن كتابه المشهورين •• وله في الشعر لون متميز ليس هنا مجال الحديث عنه •• فهذه الكلمات ليست محاولة تعريف بالمؤلف الكبير •• وانما هى لمحة ضوء عابر سريع فحسب على مكاتته الأدبية الرفيعة •• أكتبها لقراء هذه السلسلة في المملكة العربية السعودية الذين قد لا تتوافر لديهم الاحاطة بمكانة المؤلف والا فهو في مصر ، وفي غير مصر من أطراف العالم العربى ، معروف مشهور •• أو هو كما يقال : أعرف من أن يعرف ••

وللأستاذ العوضي ، صلات وثيقة بالأستاذ العقاد رحمه الله ، فهو من خاصة أصدقائه ، ومن رواد ندوته •• ومن الأوفياء لعهدده ، فى حياته وبعد وفاته ••

والأستاذ العوضي ، مثل من أمثلة الأديب يجمع مجد الأدب من أطرافه ، فهو شاعر ، ناثر تراثي ، عصري ، محدث لبق ، خطيب .. كل ذلك أثر من آثار ثقافته الواسعة ومواهبه المتعددة .

وبعد ، فإن « المكتبة الصغيرة » حينما تقدم هذا الكتاب القيم لقرائها ، ترجو أن تكون قد سدت ثغرة ، كان يجب سدادهـا وان تكون قد فعلت ذلك بخير من يمكن أن يسدهـا من فرسان هذا الميدان .

على اننى أحب أن يكون واضحـا لدى قراء هذه السلسلة ، انها الى جانب عنايتها بالتراث وأصـالته ، لم ولن تهمل المعاصرة .. فهى تحرص على أن تكون متعددة الجوانب ، فى الحدود التى لا تخلّ بخطها الأول .. وهو استهداف الثقافة البناءة . ومن الله استمد العون ، ومنه أسأل التوفيق .

عبد العزيز الرفاعى
صاحب المكتبة الصغيرة

الرياض ٢٧/٥/١٣٩٥هـ
٧/٦/١٩٧٥م

تفسير القرآن .. للقرطبي

يقول ابن خلدون في المقدمة : « اعلم أن القرآن نزل بلغة العرب على أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملاً جملاً وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع » ثم يقول : « وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين المجمل ، ويميز الناسخ والمنسوخ ، ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه وتداول ذلك التابعون من بعدهم ، والتابعون اسم يقع على الطبقة التي جاءت بعد طبقة الصحابة رضوان الله عليهم ، ولم يزل متناقلاً بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوماً ، ودونت الكتب ، فكتب الكثير من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين » •

وانتهى ذلك - كما يقول ابن خلدون - « الى الطبرى والواقدي والشعالبي وأمثال ذلك من المفسرين فكتبوا فيه

ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار ثم صارت علوم اللسان
صناعية من الكلام في موضوعات اللغة ، وأحكام الأعراب ،
والبلاغة ، بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها الى نقل
أو كتاب فتناسوا ذلك ، وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان
فاحتيج الى ذلك في تفسير القرآن لأنه بلسان العرب وعلى
منهاج بلاغتهم •

والسبب في فساد الملكات كما ذكر بعض العلماء كثرة
اختلاط العرب بالعجم ، وما دخل اللغة من فشو اللحن
وشيوخ الخطأ ، ويروون في هذا المقام حكاية مفادها أن
أبا الأسود الدؤلي سمع قارئاً يقرأ القرآن : « ان الله برىء من
المشركين ورسوله » فيخطيء في لام ورسوله ويجعلها بالكسر
لا بالفتح ، وقراءة الآية على هذا النحو كفر صريح ، قالوا
وكان خطأ هذا القارئ سبباً في تفكير أبي الأسود الدؤلي
أن يضع قواعد النحو حتى لا يقع الناس في مثل هذا
الخطأ •

وقام جمهور من العلماء المسلمين بتفسير القرآن الكريم
منهم كما قال ابن خلدون، الطبري صاحب التفسير المأثور كما
يسمونه ، لأنه فسر القرآن بالقرآن أو بالسنة الصحيحة أو بما

نقل عن الصحابة والتابعين ، ومنهم الزمخشري صاحب
الكشاف ، وغير هؤلاء ممن لهم مؤلفات مذكورة في تفسير
القرآن الكريم ، ورووا عن شيخ الاسلام ابن تيمية أنه قال :
الاختلاف في التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل
فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك والمنقول اما عن المعصوم
أو غيره ، ويريد بالمعصوم الرسول الأعظم صلوات الله عليه ،
ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه ما لا يمكن
ذلك ، وهذا القسم الذى لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه
عامته مما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا الى معرفته وذلك
كاختلافهم في لون كلب أهل الكهف واسمه وفي اسم الغلام
الذى قتله الخضر عليه السلام .

وقد عاب الأستاذ الامام محمد عبده أولئك الذين
يفسرون القرآن بدلالات الألفاظ اللغوية وحدها متجاهلين
ما يطرأ على الألفاظ من تغيير في دلالاتها بتغير الظروف
والأحوال بين عصر وعصر وجيل وجيل .

وبين ايدينا كتاب من كتب التفسير العظيمة التى كتبت
بعد نضج الثقافة العربية وازدهارها هو كتاب « الجامع
لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان ،

والمعروف بتفسير القرطبي •

والقرطبي هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح الانصارى الخزرجى الأندلسى القرطبى كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين فى الدنيا رحل الى الشرق ودخل مصر واستقر بمنية ابن خصيب (مدينة المنيا بمحافضة المنيا بمصر) وتوفي بها ومن آيات زهده وورعه أنه كان يسير المأكل يمشى بثوب واحد ، وعليه طاقة ، وله مؤلفات أشهرها « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » وارجوزة فى أسماء النبى •

ويمتاز القرطبى فى تفسيره بالامام الكامل باللغة والأدب والنحو وأصول الشريعة وفروعها وبأنه أسقط القصص والتاريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والاعراب والناسخ والمنسوخ وقد وضع فى مقدمته أنه شرط على نفسه فى هذا الكتاب اضافة الأقوال لقائلها والأحاديث الى مصنفها وقال انه أضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين الا ما لا غنى عنه للتبيين لكن بعض المحققين ذكروا أنه لم يضرب تماما عن ذلك فانه قد ذكر أن الحية كانت خادما لآدم عليه السلام فى الجنة

فخاتته ، وأن اليهود سألت النبي عن الرد ما هو ؟ فقال :
« ملك من الملائكة معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب
حيث شاء الله » فهذه وأمثالها منقولة بغير تحر لوجه الدقة من
الاسرائيليات التي اندست الى التفسير والأحاديث في عصر
المؤلف ، وفي العصور التي سبقتة بقصد الكيد للإسلام
والمسلمين .

وقد صَدَّر القرطبي تفسيره العظيم الرائع حقا بمباحث
ودراسات شملت أكثر من مائة صحيفة من الجزء الأول، وهي
مباحث ودراسات على جانب عظيم من الأهمية والقيمة كأنها
مدخل الى ذلك التفسير العظيم ، وهذه المباحث والدراسات
في أبواب يشتمل بعضها على فصول استهلها بباب ذكر فيه
جملا من فضائل القرآن والترغيب فيه ، وفضل طالبه وقارئه
ومستمعه والعامل به ، ثم باب تحذير أهل القرآن والعلم من
الربا ، ثم ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ به نفسه والمراتب
التي ينبغي لحامل القرآن أن يبلغها ثم يأتي بعد ذلك باب
في حامل القرآن ومن هو وفيمن عاداه وباب في تفسير القرآن
بالرأى وبالجرأة على ذلك .

وبين مباحث هذه الأبواب مباحث تاريخية قيمة عن

جمع القرآن وسبب ذلك ، وكتابة مصحف عثمان واحراق ما سواه وترتيب سور القرآن وآياته ونقطه ثم تقسيمه وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وسوره ، وثمة أبواب عن القراءات السبع وما ورد في القرآن من الكلمات الأعجمية •

وتختتم هذه المباحث والدراسات بباب في الاستعاذة بالله قبل قراءة القرآن التزاما بأمر الله تعالى في كتابه العزيز فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ومسك الختام في هذه المباحث البسمة وقد ذكر فيها سبعا وعشرين مسألة أظهرها ، الخلاف في كونها آية من كل سورة أو غير آية بين مالك والشافعي وغيرهما من الأئمة رضي الله عنهم •

المجازات النبوية .. للشريف الرضي

تجىء أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من ناحية الفصاحة والبلاغة ، وروعة الأداء ، وقد حفلت الصحاح كصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، والمسانيد كمسند الامام أحمد بن حنبل ، وغيرها بجمهرة من أحاديث الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام .

ولما كانت هذه الأحاديث أصلا من أصول التشريع الاسلامى فقد عنى المسلمون بها جمعا وشرحا وتفسيرا على مدى العصور الاسلامية المختلفة .

واذا كانت علوم اللغة كلها قد نشأت لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فقد تصدى لذلك الصفوة الممتازة من أهل اللغة والفكر ، وأخذ الأدباء والكتاب يحاولون فهم أسرار البلاغة والبيان فى القرآن ، وفى أحاديث الرسول الكريم ، ونشأ من ذلك نظريات بلاغية وبيانية ،

وألفت كتب تجمع بعض هذه النظريات والدراسات ، من ذلك كتاب « اعجاز القرآن » لأبى عبيدة المتوفى سنة مائتين وسبع هجرية ، وكتاب « الفصاحة » للدينورى المتوفى بعد أبى عبيدة بنحو ثمانين سنة وكتاب « اعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه » للواسطى المعتزلى المتوفى فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ثم جاءت بعد ذلك طبقات من العلماء والباحثين ، جاء الشريف الرضى أبو الحسن محمد بن أحمد الحسين ، يرتفع نسبه الى جعفر الصادق ، وجعفر الصادق هو ابن محمد الباقر بن على زين العابدين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، جاء الشريف الرضى فأضاف الى الدراسات البلاغية للقرآن العظيم وللحديث الشريف دراستين احدهما عن القرآن وجعل عنوانها « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » والأخرى عن الحديث النبوى الشريف وجعل عنوانها « المجازات النبوية » •

وبهذين الكتابين كان الشريف الرضى سابقا فى هذا المجال ، فلم يعرف قبل كتابيه هذين كتاب مستقل بذاته فى مجازات القرآن والحديث ، صحيح أن لأبى عبيدة كتابا مستقلا بذاته فى مجازات القرآن لكنه لم يقصد بكلمة المجاز

معناها الفنى البلاغى المعروف بل قصد بها الطريق ، وهدف الكتاب كله - كأقوال بعض الباحثين - ليس أكثر من اثبات أن القرآن جاز على النهج العربى وأساليب العرب لا يشذ عنها ، وأن بدا فى ظاهر الأمر أنه غير خاضع لطريقة العرب ، ولذلك كثر فى هذا الكتاب الاستشهاد بما أثر عن العرب من المنظوم والمنثور فكأن أبا عبيدة أراد بكتابه أن يكون مجازا أى طريقا لمعرفة معانى القرآن الكريم .

وكتاب «المجازات النبوية» للشرىف الرضى يجمع ثلاثمائة وواحدا وستين حديثا شريفا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . سلك فى بحثها ودراستها كما يقول فى المقدمة - محجة لم تسلك ، وطرق بابا لم يطرق ، ففى الحديث الشرىف كما يقول فى المقدمة أيضا - كثير من الاستعارات البديعة ، ولمع البيان الغريبة ، وأسرار اللغة اللطيفة ، يعظم النفع باستنباط معادنها واستخراج كوامنها » وقد قصد الى الإيجاز والاختصار فى كتابه هذا حتى لا يجفو على الناظر ، ولا يشق على الناقل فإن القلوب فى هذا الزمان (هذه عبارته والمقصود زمانه هو) ضعيفة عن تحمل أعباء العلوم الثقيلة والاجراء فى مسافات الفضائل الطويلة لأنه لم يبق من الفضل

الا الذماء والذماء بقية الروح - ومن الفضلاء الا الأسماء ،
وقد ذكر المؤلف مراجعه في الحديث فذكر أنها « كتب
غريب الحديث المعروفة واخبار المغازى المشهورة ومسانيد
المحدثين الصحيحة وان ذلك كله حصّله بالرواية عن الرواة
باجازة عن الأساتذة »

ونختار من الكتاب مثلاً يدل على سائره قال في الفقرة
الثالثة والسبعين :

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الحياء نظام
الايمان » وهذه استعارة والمراد أن الحياء يجمع خلال
الايمان كما يجمع السلك فرائد النظام ، لأن الانسان الكثير
الحياء يحجم عن مواجهة المعاصي ، ومطاوعة المغاوى ، فاذا
قلّ حياؤه ، تفرق جماع ايمانه فأشبهه السلك في أنه اذا انقطع
تهافتت خرز نظامه وهذا المعنى اراده الشاعر بقوله :

يعيش المرء ما استحيا بخير
ويبقى العود ما بقى اللحاء

وليس ينافى هذا الحديث الآخر وهو قوله عليه الصلاة
والسلام : « الحياء شعبة من الايمان » فانه لا يمتنع أن يكون

شعبة منه ويكون مع ذلك نظاما له » ♦

وقلنا ان الكتاب قد اختار ثلاثمائة وواحدا وستين حديثا وحاول أن يلفت الأنظار الى نواحي الجمال والبلاغة فيها في عبارة بسيطة موجزة ، والشريف الرضي في آخر الكتاب يقول : وهذا آخر انتهائنا من كتاب مجازات الآثار النبوية على ما تخلل عملنا له من قواطع الاشغال وبواهب الأثقال ، وعوادي الايام والليالي ، وقد خرجنا في صدر هذا الكتاب من عهدة التكفل باستيعاب جميع ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من آثاره الملفوظة والأخبار المنقولة ، بما شرحناه من كلامنا الذي وقع إلينا وقرب من متناولنا دون ما بعد عنا وشذّ عن أيدينا » ♦

ومن تمام التعريف بالشريف الرضي نذكر أنه ولد سنة ٣٥٩هـ وتوفي سنة ٤٠٦هـ فهو قد عاش سبعا وأربعين سنة ، حياة تمتاز بالنبوغ المبكر فقد نظم الشعر في العاشرة ودرس النحو دون العاشرة على السيرافي العالم النحوي الشهير ، وقد انتهت إليه نقابة الاشراف الطالبين في بغداد في حياة أبيه ، وألف كثيرا من الكتب منها سوى ما تقدم مختار شعر الطائي وابن حجاج ، وشعر الشريف الرضي يمتاز بالفحولة

والقوة وله قصائد كثيرة مشهورة في الفخر والغزل منها
قصيدته الغزلية التى أولها :

يا ظبية البان ترعى فى خمائله
ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

ومنها قصيدته الفاخرة التى يقول فيها :
فان تك سنى ما تطاول باعها
فلى من وراء المجد قلب مدرب

وخير ما نختم به الحديث عن الشريف الرضى هذه الأبيات
التى يمدح بها الخليفة العباسى القادر بالله •

عظفا أمير المؤمنين فأننا
فى دوحة العلياء لا تتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت
أبدا كلانا فى المعالى معرق
الا خلافة ميزتك فأننى
أنا عاطل منها وأنت مطّوق

الجامع الصحيح .. للإمام البخاري

شاع بين الناس أن الحديث النبوي الشريف لم يدوّن إلا في عصر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز حين كتب الى عماله في أمهات المدن الاسلامية انظروا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوه وذلك بعد أن جمع القرآن الكريم وانهى الناس من كتابته •

لكننا نجد بعض المؤرخين يذكرون أن تدوين الحديث بدأ في عهد الرسول ، وأن هذا التدوين تمّ بأيدي نفر من الناس كانوا معروفين في ذلك الحين ، ولم يكن هذا التدوين عاما ، فقد ذكروا أنه كانت لعبد الله بن عمرو صحيفة دوّن فيها الحديث عن الرسول مباشرة بلا وساطة من اسناد أو رواية ، وكان يسميها الصحيفة الصادقة وكان لجابر بن عبد الله الانصاري صحيفة أيضا والأعبي بن مالك رضي الله عنهما •

وذكر أهل البحث من الثقات أن هذه الصحائف لا تتعارض مع الحديث الشريف لا تكتبوا عنى غير القرآن

ومن كتب عنى غير القرآن فيلمحه ومن كذب علي متعمدا
فليتبوأ مقعده من النار •

قالوا ان ذلك كان بالنسبة لكتاب الوحي حتى يتفرغوا
لمهمة القرآن أو أن النهي كان خاصا بكتابة الحديث مع
القرآن في صحيفة واحدة لأن مبدأ تدوين الحديث في عصر
النبي ثبت فيما رواه من أن رجلا من اليمن أسمه أبو مشاه
سمع من النبي وطلب أن يكتب له ما قال فقال النبي صلى
الله عليه وسلم : اكتبوا لأبى مشاه •

وأيا ما كان الأمر فان تاريخ التدوين الرسمي بدأ بأمر
عمر بن عبد العزيز ، وان كان باحث مدقق كالأستاذ
« أحمد أمين » في كتابه ضحى الاسلام يشكّ في أن هذا
الأمر قد نفذ •

لكن الثابت أن التأليف في الحديث بدأ في منتصف القرن
الثاني للهجرة ووصلنا مما جمع في هذه الفترة موطأ الامام
مالك ووصف لبعض المجموعات الأخرى وكانت حالة
التأليف الأولى في الحديث هي مراعاة الموضوعات ومزج
حديث الرسول بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين • أما
المرحلة الثانية فكانت مرحلة المسانيد وهي أن ترتب
الأحاديث وتجمع على حسب روايتها لا على حسب

موضوعاتها ، وأشهر المسانيد مسند أحمد للإمام أحمد
ابن حنبل رضي الله عنه •

وجاء القرن الثالث الهجري ونضجت العلوم ، ونشطت
حركة النقد لتمييز الصحيح من الضعيف ، وترتيب درجات
الثقة في الرجال ، وفي هذا القرن ألفت الكتب الستة في
الحديث وهي صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن
أبي داود ، وجامع الترمذي ، وسنن النسائي ويلحق بها
عادة مسند الامام أحمد •

والبخاري هو الامام محمد بن اسماعيل أمير المؤمنين
في الحديث كان أجداده من الفرس يدينون بالمجوسية وأسلم
هذه الرابع على يدي والي بخاري ، وكان جعفيا (وهذا
نسب الى قبيلته) ولذلك يرد في التعريف بالبخاري
« الجعفي » ، وبدأ حفظ الحديث وهو ابن عشر سنوات
ورحل في طلب الحديث الى الأقاصى والأمصار ، وسمع
وروى عن أعلام من العلماء بمكة والمدينة والشام وبخاري ،
ومرو وباه ، ونيسابور ، وبغداد ، وواسط والبصرة والكوفة
ومصر وكان رجلا زاهدا ورعا تقياً عكف على العلم طول
حياته •

و « الجامع الصحيح » للإمام البخاري يقول في حقه

بعض العلماء : انه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى ، والاسم الكامل للكتاب هو « الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيامه » واشتهر بين الناس باسم الجامع الصحيح أو صحيح البخارى وروى أنه ألفه في ست عشرة سنة وأنه كان يقول : ما كتبت في كتاب الصحيح شيئاً الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، وذكروا أنه صنف في المسجد الحرام والمسجد النبوى في الروضة الشريفة ، وقيل انه ألفه بمكة والمدينة والبصرة وبخارى •

وقد عدّ الحافظ بن حجر العسقلانى أحاديث الجامع الصحيح للبخارى فوجدها وبعضها مكرر - سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعين حديثاً - وهناك المعلقات والموقوفات والمعلق هو الذى حذف من مبدأ اسناده واحد أو أكثر وقد ذكر منه البخارى كثيراً وقد أحصى أحد العلماء كل ما ورد في الكتاب فوجده بالمكرر تسعة آلاف واثنين وثمانين حديثاً شريفاً والموقوفات التى ينتهى سندها الى الصحابة •

ويسوقنا تشدد الامام البخارى فى تحرى حال الرواة الى أن نذكر أن من أسباب ذلك : الخلافات السياسية

والمذهبية التي قامت في القرن الأول الهجري ، وما تلاه وكيد
بعض الناس للإسلام باختراع الأحاديث وتلفيقها ، وكان
هذا وغيره سببا في قيام علم مصطلح الحديث لمعرفة الصحيح
والضعيف والحسن وغيره منها بمعرفة حال الرواة وفي
مصطلح الحديث ألفت منظومات لسهولة حفظ التقسيمات
المختلفة فيه •

ومن هذه المنظومات منظومة تسمى « غرامى صحيح »
لشهاب الدين أحمد الاشبيلي المتوفي سنة ٦٩٩ هـ وأولها :
غرامى صحيح والرجا فيك معضل

وحزنى ودمعى مرسل ومسلسل
ففى هذا البيت ذكر من هذه التقسيمات (صحيح -
معضل - مرسل - مسلسل) وكذلك المنظومة البيقوتية
لله بن محمد البيقوتى وفيها يقول :
أولها الصحيح وهو ما اتصل

أسناده ولم يشذ أو يعل
ثم منظومة الصبان لأبى العرفان محمد بن على الصبان
المتوفي سنة ١٢٠٦ هـ وأولها :

سلوا صحيح غرام صبره ضعفا
وبدلوا قطع من فى حسنكم شغفا

ومن تمام التعريف بالبخارى أن تذكر شيئاً عن مؤلفاته الأخرى الى جانب الجامع الصحيح ، فهناك « التاريخ الكبير » وهو كتاب يخدم السنة النبوية الشريفة فقد حاول البخارى فيه استيعاب الرواة من الصحابة ثم من جاء بعدهم الى قرب عصر البخارى وقد رتبّه على حروف المعجم وبدأ بالمحمدين من الرواة تكريماً واعزازاً لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم . وهذا الكتاب يدل على واسع علم البخارى بالرواة ، ويدعم الثقة بكتابه الجامع الصحيح . وقد كتب في المدينة المنورة في الليالى المقمرة ثم له « التاريخ الصغير » وهو مختصر من تاريخ الرسول الأعظم وصحابه من الأنصار ثم التابعين . ثم له كتاب الكنى (جمع كنية) ذكر فيه من غلبت كنيته على اسمه ، ومن لم يعرف الا بكنيته (والكنية ما صدر بأب وأم من الأسماء كأبى القسام وأم الخير وهم يعدون هذا الكتاب جزءاً من التاريخ الكبير .

له كذلك « الأدب المفرد » من حكم الرسول ومواعظ ثم كتاب فى الفقه ككتاب رفع اليدين فى الصلاة والقراءة خلف الامام وغيرها .

البيان والتبيين .. للجاحظ

الجاحظ ، عمرو بن بحر بن محبوب ، عبقرى من عباقرة اللسان العربى وكتابه « البيان والتبيين » ذخيرة من ذخائر الأدب العربى ، ولد فى سنة ١٥٠هـ ، كما يحدث هو نفسه فيقول أنا اسن من ابى نواس بسنة فقد ولدت فى سنة ١٥٠هـ وولد هو فى آخرها ، وقيل بل ولد سنة ١٥٦هـ وطالت حياة الجاحظ حتى نيّف على المائة بل زاد عليها وقد روى المبرد أنه دخل على الجاحظ فى آخر أيامه فقال له : كيف أنت يا أبا عثمان ؟

فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس ، لو طار الذباب بقربه لآلمه وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها .

الجاحظ عربى صريح النسب الى العرب ، يتصل نسبه بكنانة بن خزيمة فهو عربى مضرى ، لكن ياقوت الحموى فى معجم الأدباء ينفى عنه هذه النسبة العريية ويزعم أنه

كنانى بالولاء لا بالنسب ومعناه أن بعض جدوده كانوا عبيدا لكنانة ثم اعتقوا ولكننا لا نرى ما رآه ياقوت ولو كان الأمر كما قال ياقوت لما نشط هذا النشاط الذى رأيناه فى البيان والتبيين لمحاربة الشعوية والهجوم على أولئك الذين يكرهون العرب ويتلمسون لأنفسهم أسباب الهجوم عليهم والتشهير بهم •

فى هذه الفترة من حياة الأمة العربية فضجت العلوم ونشطت الترجمة عن الفارسية واليونانية وازدهر الأدب شعره ونثره • وتطورت الكتابة الفنية على ايدى طائفة من الكتاب العظام وارتفعت منزلة الكتاب ارتفاعا عظيما حتى كان منهم أعظم الوزراء •

ونشأ الجاحظ بالبصرة فى وسط علمى عظيم ، ففيها عاش أفذاذ هذه الأمة كأبى الأسود ونصر بن عاصم وأبى عمرو بن العلاء والاخفش النحوى وأبو عبيدة ، وكانت لهؤلاء حلقات علم ودرس فى مساجد البصرة وفى مربدها •

ونشأة الجاحظ كانت نشأة الفقير فقد روى أنه كان يبيع الخبز والسمك فى السوق ولكنه كان مشغوبا بالقراءة متلهفا على الكتب ومن أعجب ما روى عنه فى ذلك أنه كان

يكترى (أى يستأجر) دكاكين الوراقين (أى باعة الكتب)
ويبيت فيها ليلا للنظر والقراءة ، ولقد تتج عن ذلك أن
الجاحظ كان دائرة معارف فى سعة معلوماته وكثرة معارفه
وتأليفه والى هذا فهو متكلم كاتب شاعر مؤرخ عالم
بالحيوان والنبات ، وقد أثبت ياقوت فى معجمه فهرسا كاملا
لكتب الجاحظ فى نحو أربع صفحات ومن أشهرها
« الحيوان » ، « والبيان والتبيين » و « البخلاء » و « التاج »
وكتاب الحيوان كتاب ضخيم ، وهو معرض أدبى علمى
لاحدى حداثق الحيوان الكبيرة وفيه فكاهات ممتعة يقول
عنها الجاحظ ، تضحك كل ثكلان وان تشدد وكل غضبان
وان أحرقة لهيب الغضب بل ان الجاحظ اطلع على كتاب
الحيوان لأرسطو ، وناقشه فى بعض مسائله يقول :

« وزعم صاحب المنطق ، يقصد أرسطو ، أنه قد ظهرت
حية لها رأسان فسألت أعرايبا عن ذلك فزعم أن ذلك حق ،
فقلت له : فمن أى جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تأكل وتعض ،
فقال : أما السعى فلا تسعى ولكنها تسعى لحاجتها بالتقليب
كما تنقلب الصبيان على الرمل ، أما الأكل فانها تتعشى بفم
وتتغذى بفم وأما العض فانها تعض برأسها معا فاذا به
اكذب البرية .

« والبيان والتبيين » ، يعدّه ابن خلدون واحداً من أربعة كتب جامعة هي أدب الكاتب لابن قنينة ، و « الكامل » للمبرد والنوادر لابن على الثعالبي ، « والبيان والتبيين » للجاحظ .

وهذا الكتاب الفريد يصدره الجاحظ بمقدمة جميلة في البيان والعي والحصر واللسان أداة الكلام ، وإذا كان الصمت في موضعه المناسب نوعاً من البلاغة والبيان فقد تحدث عنه الجاحظ حديث الأديب المبدع ، وأجمل ما في هذا الكتاب دفاعه الحار عن العرب ، وعن البلاغة العربية ضد الشعوبيين فقد هاجمهم الجاحظ وفتّد مزاعمهم . وأعظم ما ورد من ذلك في باب العصا ، وسبب تسميته أن العربي كان يمسك عصا حين يخطب وأنكر الشعوبيون عليهم ذلك يقول الدكتور طه حسين : وأصل هذا الباب - باب العصا - ان الشعوبية كانوا ينكرون على العرب الخطابة وينكرون على خطبائهم ما كانوا يصطنعون أثناء خطابتهم من هيئة وشكل وما كانوا يتخذون من أداة ، وكانوا يعييون على العرب اتخاذ العصا والمخصرة وهم يخطبون فكتب الجاحظ « كتاب العصا » ، ليثبت فيه أن

العرب أخطب من العجم وأن اتخذ العربي للعصا لا يغض
من فنه الخطابي أليست العصا محموددة في القرآن والسنة
والتوراة وأحاديث القدماء ؟ ومن هنا مضى الجاحظ في
تعداد فضائل العصا حتى أنفق فيها سفرا ضخما •

« والبيان والتبيين » من ناحية أخرى يعتبر أعظم مصادر
الشعر والخطابة والمحاورة والرسائل في الجاهلية والاسلام
وعنه نقل ابن قتيبة والمبرد وابن عبد ربه صاحب العقد
الفريد وأبو هلال العسكري وابن رشيق •

وإذا لم يكن من الميسور أن نعرض هذا الكتاب عرضا
تفصيليا فاننا نكتفى بما مر عن موضوعه ونزيد عليه كلمة
في أسلوب الجاحظ فان له أسلوبا فريدا يشبه السياحة فهو
ينقلك من فن الى فن ، ومن حديث الى حديث بل من
موضوع الى موضوع آخر وهذا ما يسمونه الاستطراد ،
وهو نتيجة منطقية لاتساع ثقافته وكثرة معلوماته •

وفكاهة الجاحظ رائعة ولعلها كانت لعلاج ملل القارئ
من الاستطراد فيخرج من الجد الى الهزل ، ومن الحكمة
البالغة الى النادرة اللطيفة دفعا لسآمة القارئ والتماسا
لحسن متابعتة •

وهو كاتب ساخر نقرأ رسالته في ابن عبد الوهاب الكاتب فنجده يسخر منه أبلغ السخرية دون أن يتضمن الحديث كلمة واحدة فيها نبوءة أو خروج • من نوادره أنه حدث عن نفسه أن امرأة لقينته ببعض الطريق فطلبت اليه أن يتبعها حتى أتت الى صائغ وأشارت الى الجاحظ قائلة : مثل هذا ، ومضت لا تلوى على شيء فسأل الجاحظ الصائغ مثل ماذا ؟ فقال له ان هذه المرأة تريد أن تخيف ابنها الصغير بصورة شيطان تنقشها له في فص خاتم فلما قلت لها : انى لم أر الشيطان حتى أنقش لك صورته أحضرتك الي •

الجاحظ زعيم فرقة من المعتزلة يعرفون بالجاحظية نسبة اليه ويقول ابن خلكان انه كان مشوه الوجه وانما قيل له الجاحظ لجحوظ عينيه أى بروزهما وقد ندبه المتوكل لتأديب أولاده أى لتعليمهم فلما رآه المتوكل استبشع منظره وأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه •

ومن تمام الحديث عن « البيان والتبيين » أن نقول انه ألف هذا الكتاب لأحمد بن أبى دؤاد وأهداه اليه فكافأه بخمسة آلاف دينار من الذهب •

بِسْمَةِ الرَّهْرِ . . لِلشَّعَالِي

هَذَا الْفَرَاءُ الَّذِي كَانَ يَخِيطُ جُلُودَ الشَّعَالِ ، وَيَحْتَرِفُ ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَدَعَا الشَّعَالِي نِسْبَةً إِلَى هَذِهِ الْمِهْنَةِ الَّتِي كَانَ يَحْتَرِفُهَا ، هَذَا الْفَرَاءُ يَعْظُمُ شَأْنَهُ فِي عَالَمِ الْآدَابِ فِي نِيسَابُورِ عَظْمَةٍ تَجْعَلُ عَالِمًا جَلِيلًا كَأَبِي الْحَسَنِ الْبَخَارِي يُسَمِّيهِ جَاظُ نِيسَابُورِ لَمَّا رَأَى مِنْ عِلْمِهِ وَفَضْلِهِ ، وَحَسَنَ تَأْلِيْفِهِ وَتَصَانِيْفِهِ فِي الْأَدَبِ وَاللُّغَةِ ، فَمَنْ هُوَ هَذَا الْفَرَاءُ الشَّعَالِي الْعَالِمُ الْأَدِيبُ ، وَمَا هِيَ مَوْلاَتُهُ ؟

هَذَا الْفَرَاءُ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ أَبُو مَنْصُورِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الشَّعَالِي وَلِدَ فِي نِيسَابُورِ عِنْدَ مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ وَقَدْ ضَاعَتْ تَرْجُمَتُهُ بَيْنَ مَا ضَاعَ مِنْ مَعْجَمِ يَاقُوتِ الْحَمَوِيِّ ، وَالَّذِي لَمْ يَذْكُرْ ابْنَ خُلْكَانَ عَنْ أَسْرَتِهِ شَيْئًا وَلَمْ يَتَعَدَّ الْجَدَّ الثَّالِثَ لَهُ .

هَذَا الْفَرَاءُ الشَّعَالِي ، كَانَ عَمَلًا مِنْ أَعْلَامِ عَصْرِهِ فِي الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَقَدْ اِمْتَدَحَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَدْبَاءِ وَالْمُؤَرِّخِينَ وَأَثْنَى

عليه ابن بسام فى الذخيرة ولقبه الباخري - كما عرفنا
بجاحظ نيسابور ، له مؤلفات كثيرة تدل على علو كعبه وسعة
معارفه منها « يتيمة الدهر » الذى تتحدث عنه ومنها كتاب
« فقه اللغة » ، وكتاب « سحر البلاغة » و « طبقات الملوك »
و « المضاف والمنسوب » و « المقصور والممدود »
و « المتشابه » ويقول الزركلى فى الاعلام أن له كتابا اسمه
« الجواهر الحسان فى تفسير القرآن » وله كتاب اسمه
« النهاية فى الكناية » وقد كتب فصلا فى تفضيل النثر على
الشعر ، الأمر الذى دعا ابن رشيق صاحب كتاب « العمدة »
أن يرد عليه مفضلا الشعر ، وتوفى أبو منصور الثعالبي
سنة أربعمائة وثلاثين هجرية •

كتابه يتيمة الدهر وضعه فى أول الأمر سنة ثلثمائة وأربع
وثمانين ، وهو شاب وروى فيه لشعراء عصره وافتتحه باسم
بعض الوزراء تقريبا به اليه كما يقول هو - ولكنه كما يقول
هو أيضا ، كتبه فى مدة تقصر عن اعطاء الكتاب حقه ولا
تتسع لتوفيه شرطه فارتفع كعجالة الراكب وقبسة العجلان
وقضى به حاجة فى نفسه ثم أعاد تأليفه بعد مدة من الزمن لم
يحددها لكن لهجته فى المقدمة تدل على تراخى الزمن بين

الكتابين ، على أنه لم يذكر فيها تواريخ ، لكننا نلاحظ في
ثنايا الكتاب ذكرا لبعض السنوات يفهم منها أنه الف بعد
الكتاب الأول بمدة كما ذكر في ترجمة ابي الفتح البستى
الثانية اذ ذكر سنة أربعمائة هجرية •

كتاب اليتيمة كتاب تراجم ورواية أشعار ونقد لمعاصرى
مؤلفه أو سابقه بقليل وهو كما قلنا تنقيح لكتاب كان قد
الفه سنة ثلثمائة وأربع وثمانين هجرية بعد أن رأى المتقدمين
وتواليفهم عن المتقدمين ورأى محاسن أهل عصره غير
محصورة في كتاب يضم نثرها وينظم شذورها لكنه عاد
فرأى أنه تعجل وان الكتاب يحتاج الى النظر والتنقيح
ويقول الثعالبى فى ذلك فغيرت ترتيبه وجددت تبويبه
والشرط فى هذه الأخرى (أى فى النسخة المنقحة وهى
لكتاب اليتيمة الحالى) هو ايراد لب اللب وحببة القلب
وناظر العين ونكتة الكلمة وواسطة العقد ونقش الفص مع
كلام فى الاشارة الى النظائر والاحاسن والسرقات ونبد من
اخبار المذكورين ، وغرر من المترسلين ، يميل الى جانب
الاقتصار فالكتاب اذن رواية مختارات ، ونقد وموازنة
وتاريخ ، ولكن لفترة واحدة من عصور الأدب هى الفترة

التى عاش فيها أبو منصور أو قبلها بقليل •

على أن أبا منصور لم يعن بالتواريخ تمام العناية فلم يدوّن مولد الشاعر ولا زمن وفاته ولا كيف نشأ الا فى تراجم قد لا تعدو العشر ومنها ترجمة أبى الفتح البستى والصاحب بن عباد ، والمتنبى وانما يكون خص بعضهم بتراجم غاية فى الطول كالمتنبى فانه خصه بباب طويل استغرق مائة صحيفة ، وقد كرر بعض التراجم ، واللطيف فى الأمر أنه يعلل ذلك بأنه كتب الترجمة الثانية بعد أن رأى المترجم له وقابله •

قسم الثعالبي الكتاب أربعة أقسام الأول فى محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها ومصر والموصل والمغرب وصدر هذا القسم بفصل فى تفضيل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان والقسم الثانى فى شعر آل بويه ووزرائهم وأدبائهم ، وألحق به فصلا فى أشعار أهل البصرة ، وخص شعراء بغداد بفصل من هذا القسم ، والقسم الثالث فى أشعار أهل الجبال وفارس وجرجان ووزراء الديلم ، وفي هذا الفصل يذكر (ابن العميد) وشمس المعالى وقابوس بن وشمكير •

أما القسم الرابع فقد جعله لشعراء أهل خراسان وما وراء النهر من انشاء الدولة السمانية والغزنوية والطارئين على الحضرة ببخارى وخاصة أهل نيسابور •

ويبدو أن المؤلف كان حريصا على تعداد أسماء الشعراء أكثر من حرصه على الرواية لهم فهو أحيانا لا تحضره أشعار بعض الشعراء فيقيد أسماءهم ، ويعد باثبات مختارات منها اذا وقعت له أو يطلب من القارىء زيادتها فى كتابه ، ومن هؤلاء الآمدى الاديب الناقد ، وقد ذكر الثعالبى فى كتابه كثيرا من الشعراء الذين طوتهم العصور وأبقى كتابه أسماءهم وبعض أشعارهم •

وقد أكثر من رواية شعر المجون فى هذا الكتاب غير أنه يعتذر بأن هزل الأدب جد ، ولعل عذره أن موجة طاغية من هذا اللون الشعرى طغت على الأدب فى عصره طغيانا شديدا •

والثعالبى رجل صريح جدا اذا نسي شطر بيت أتمه من عنده وذكر ذلك بغاية الصراحة ، واذا سأله أحد الشعراء أن لا يروى له شعرا فى الغزل والتشبيب أجابه الى طلبه وأعلن ذلك للقارىء •

ولهذا الكتاب تنمة وذيول ، أما التتمة فقد ذكر بعض الباحثين أنه عشر على مخطوطها ، وأما الذيل فهي دمية القصر للباخرزى ودريئة الدهر لدلال الكتب وخريدة القصر للعمار الاصبهاني ، ولكتاب اليتيمة اختصار فقد اختصرها تقى الدين بن عبد القادر المصرى المتوفي فى السنة الخامسة بعد الألف من الهجرة ووقع الاختصار فى نحو نصفها الأول .

معجم الأدباء . . لياقوت

معجم الأدباء لياقوت الحموى يناظر معجم البلدان له أيضا ، والاسم الذى اختاره ياقوت لمعجم الأدباء هو « ارشاد الأريب الى معرفة الأديب » ويسميه بعض الباحثين « ارشاد الالباء الى معرفة الأدباء » ولكن الاسم الأول أشهر .

أما ياقوت بن عبد الله صاحبه ، فهناك يواقيت ثلاثة تشترك معه فى الاسم واسم الأب ، ولثلاثتهم شهرة واسعة فى تاريخ الثقافة العربية ، ومن عجب أن تكون حياتهم جميعا قد وقعت فى القرنين السادس والسابع الهجريين وأقدمهم هو ياقوت بن عبد الله الموصلى الكاتب ، ولذلك نجد الياقوتين الآخرين يخافان من طغيان شهرته فيغير الثانى اسمه الى عبد الرحمن وهو ياقوت بن عبد الله الرومى مذهب الدين ، الشاعر ، ويغير الثالث من اسمه الى يعقوب وهو ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى ، ووفياتهم متقاربة

التواريخ فالأول مات في العقد الثالث من القرن السابع ، وكذلك الثاني أما الثالث فقد مات بعدهما ببضع سنوات •
الذى يعيننا من هؤلاء اليواقيت هو صاحب « معجم الأدباء » وهو الثالث الأخير وان كان الياقوتان الآخران لا يقلان عنه أثرا في الثقافة العربية ، فان الاول منهم صاحب شهرة في الخط العربى ، طبقت الآفاق ، وكان ينسخ بعض الكتب حيث لم تكن الطباعة بالحروف قد وجدت بعد ، ومما نسخه وأكثر من نسخه كتاب الصحاح للجوهري ، وهو كتاب من كتب اللغة الضخمة الجيدة وكانت النسخة الواحدة منه تباع بمائة دينار من الذهب في بغداد ، فاذا عرفنا أن ثمن الخروف كان لا يكاد يبلغ نصف دينار عرفنا ضخامة الثمن الذى كان يباع به هذا الكتاب •

لقد كان صاحب مدرسة في الخط العربى ، ولذلك فان ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » يتحدث عنه فيقول : كتب عليه خلق كثير أى أخذوا فن الكتابة عنه ، ومدحه الشعراء بحسن الخط فقال أحدهم :

ذو يراع تخاف صولته الأسد
وتعنو له السكتائب دلا

وإذا اقتَرَّ ثغره عن سواد
في بياض فالبيض والسمر خجلى
مثل وشي الرياض أو كنظيم
الدر يزهى خطا ولفظا وتقلا

أما ياقوت الثانى ، فشاعر شهير ، ومن شعره :

يصد اذا ما صد عن عيني الكرى
ويمزج دمعى هجره بمدامى
حياتى وموتى فى يديه وجنتى
ونارى وريى فى الهوى وأوامى
ومن وجنتيه نار وجدى وخصره
نحولى ومن سقم الجفون سقامى

والثالث هو المعنى بهذا الحديث لأنه صاحب « معجم
الأدباء » الذى جعلناه موضوع هذا الفصل • وقد ولد فى
بلاد الروم ونشأ بها ، وفى بعض الحروب بين المسلمين والروم
وقع أسيرا فى يد المسلمين فكان أسره هذا بداية حياة
عظيمة من العلم والأدب والتصنيف •

وكان مملوكا لرجل بغدادى أصله من حماة ببلاد

الشام ، اسمه عسكر الحموى وقد دفع عسكر ياقوت الى المعلمين فعلموه القراءة والكتابة وشيئا من النحو واللغة ، ثم اشتغل في تجارة عسكر ، لكن العلم لم يزل يستهويه فكان يقرأ ويقرأ ثم لما مات عسكر وكان قد اعتقه قبل ذلك بسنوات انصرف ياقوت لمعالجة أمور نفسه ، فتاجر في الكتب وأكثر من التنقل في البلاد الاسلامية الواسعة الأرجاء فمن الشام الى العراق ، الى خراسان ، الى الخرطوم ، الى خوارزم ، وحين كان في خوارزم صادفه وهو بها زحف التتار ، ففر هاربا وترك كل ما يملك سنة ٦١٦ هـ وانظر الى عبارة ابن خلكان في وصفه وهو على تلك الحال : فانهزم بنفسه كبعثه يوم الحشر من رمسه (أى فقير عريان لا يملك شيئا) وأعوزه دنىء المآكل وخشن الثياب وظل يتنقل شريدا طريدا في البلاد الى أن وافاه أجله في فندق بمدينة حلب •

كتاب معجم الأدباء يعتبر من آثار الترتيب العلمى والأدبى فى العصر العباسى الأخير ، وقد ألف هذا الكتاب فى الربع الأول من القرن السابع بعد نضج الثقافة العربية وبلغها أقصى غاياتها •

لياقوت ملكة فى التأليف ، وترتيب الكتب أثنى عليها

كثير من المؤرخين ونقّدة الآداب ، وموضوعات مؤلفاته تدل على ملكة الجمع والتصنيف ، منها مثلاً « معجم البلدان » و « معجم الشعراء » و « أخبار المتنبي » وله كتاب لطيف اسمه « عنوان كتاب الأغاني » فقد ألفه بعد أن قرأ كتاب الأغاني قراءة واعية مستوعبة ، ولاحظ عليه عدة ملحوظات مهمة فقال : تأملت هذا الكتاب فوجدته يعد بشيء ولا يفي به في موضع كفوله في أخبار أبي العتاهية ، وقد طالت أخباره هنا وسنذكر خبره مع عتبة في موضع آخر ولم يفعل ، وقال في موضع آخر « في أخبار أبي نواس مع جنان » اذا كانت سائر أخباره قد تقدمت ، ولم يتقدم شيء منها ، والأصوات المائة في كتاب الأغاني حصرها ياقوت فوجدها تسعة وتسعين فقال : وما أظن الا أن الكتاب قد سقط منه شيء أو يكون النسيان قد غلب عليه والله أعلم • و «معجم الأدباء» موسوعة حافلة بتراجم أعلام الأدب واللغة والنحو والقراءات وأعيان الرواة ، والمحدثين ، ويقول المستشرق مرجليوث : أن معجم الأدباء يعين على اجراء تصحيحات في مؤلفات عدة لكتاب الفهرست لابن النديم وكتاب اليتيمة للثعالبي •

الملاحظ أن لياقوت كتابا اسمه « معجم الشعراء » ،

ولذلك رأينا أنه استبعد في كتابه « معجم الأدباء » الشعراء الذين لم يشتهروا بغير الشعر كأبى الطيب المتنبي مثلاً والفئات المذكورة في الكتاب حددها ياقوت بنفسه في المقدمة فقال : « جمعت في هذا الكتاب ما وقع الي من أخبار النحويين ، واللغويين ، والقراء المشهورين ، والأخباريين ، والمؤرخين والوراقين المعروفين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة والمغنية وكل من صنف في الأدب تصنيفاً أو جمع فيه تأليفاً » .

ثم قال : ولم آل جهداً في إثبات الوفيات ، وتبيين المواليذ ، والأوقات وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم والأخبار بأنسابهم وشيء من أشعارهم .

ثم قال: وقد حذف الأسانيد إلا ما قتل رجاله وقرب مناله، وأثبت مواضع أخذى ومواطن نقلى .

معنى هذا أنه حذف ما لا فائدة منه من الأسانيد « عن فلان عن فلان » وأنه حدد خطة الكتاب في المقدمة أو خطبة الكتاب كما كان يسميها المؤلفون القدامى ، وأنه تحرى الدقة جهد الاستطاعة في التواريخ ، وأنه ذكر المؤلفات ، وذكر كذلك أمثلة لشعر الشاعر ونثر النثر ، وأخيراً أثبت

المصادر والمراجع ليتمكن القراء من الرجوع الى الأصل
كلما أرادوا ذلك •

وفى رأينا أن هذا الكتاب « معجم الأدباء لياقوت
الحموى » موسوعة حافلة ، لكثير من أعلام الأدب العربى ،
جمع لها المؤلف مادته من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ
أهل الأدب ومن أفواه الرواة ومن تفاريق الكتب
وما حصله فى أسفاره التى كانت ولا شك عاملا من عوامل
اتساع ثقافته وتزايد معارفه ومعلوماته •

وإذا كان لابد من اضافة الى ما تقدم عن هذا الكتاب
فهى أنه لقى كثيرا من عناية المستشرقين فقام على الطبعتين
الأوليين منه المستشرق مرجليوث وصدرت فى مصر منه
طبعة ثالثة قام عليها الدكتور « أحمد فريد » بمعونة نفر من
أعلام الأساتذة فى الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب بجامعة
القاهرة •

آداب الكاتب .. لابن قتيبة

كتب أحد العلماء الأدباء من معاصري الجاحظ يقول في حقه :

« انه كذاب يضع الحديث (لا يقصد أحاديث الرسول وإنما أحاديث الأدب) وينصر الباطل ، وان كتبه ملئت بالمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ » . فمن هذا العالم الأديب الذي تحدث عن الجاحظ فاجترأ عليه هذا الاجتراء ؟ •

هذا العالم الأديب أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينورى ، من أعلام القرن الثالث الهجرى ، حيث ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين وتوفى سنة احدى وسبعين ومائتين وذكر أنه مات فجأة ، وقيل انه أكل هريسة فأصابته حرارة ثم صاح صيحة شديدة سمعت من بعد ثم أغمى عليه ثم مات ، وابن قتيبة بحر من بحار العلوم فى هذه الأمة •

له مؤلفات كثيرة وتصانيفه كما يقول العلماء مفيدة كلها

منها أدب الكاتب وهو موضوع حديثنا ، ومنها كتاب « المعارف » ، وكتاب « غريب القرآن الكريم وغريب الحديث » ، و « عيون الأخبار » و « مشكل القرآن » و « مشكل الحديث » وغيرها وأصل أبيه من مرو بخراسان، لكن ابن قتيبة ولد ببغداد ، وهي يومئذ العاصمة السياسية والعلمية والثقافية للعالم العربي والعالم الاسلامى .

نشأ ببغداد وتثقف على أهلها وأخذ العلم عن رجالها حتى نضج فولى القضاء فى مدينة دينور « وهى مدينة فى بلاد الفرس قرب همذان » ولذلك نسب اليها ف قيل الدينورى ، وله ابن هو القاضي (أبو جعفر أحمد بن قتيبة) الأديب وقد أخذ العلم عن أبيه وعن غيره ، وتولى القضاء بمصر فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ويروون عنه أنه كان يجلس للدرس فيتحدث بكتب أبيه فى العلم واللغة والأدب حفظا ولم يكن معه كتاب ... بل ان التاريخ ليذكر أن حفيده (عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله بن مسلم) انتقل الى مصر فسكنها وروى فيها للناس كتب جده رواية عن أبيه ...

لقد شهد لابن قتيبة بالعلم والفضل كثير من العلماء

الأعلام وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية وهو يوازن بينه وبين ابن الانباري « وليس ابن الانباري بأعلم بمعاني القرآن والحديث وأتبع للسنّة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك وإن كان ابن الانباري من أحفظ الناس للغة لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة » •

وقد اتفق العلماء على أن مصنفاته مفيدة ، وأنها عظيمة القدر ، جليلة النفع حتى كان أهل المغرب يهتمون من لم يكن في بيته من تأليف ابن قتيبة شيء

وقد وجه بعض العلماء النقد الى بعض مؤلفاته فمثلا قالوا عن « أدب الكاتب » انه خطبة بلا كتاب ، وأن « اصلاح المنطق » كتاب بلا خطبة لكن ابن خلكان دافع عنه بحرارة فقال : هذا فيه نوع تعصب عليه ، فان أدب الكاتب قد حوى من كل شيء وهو مفنن وما أظنه حملهم على هذا القول الا أن الخطبة طويلة والاصلاح بغير خطبة •

هذا النقد الذي وجهه بعض الناس الى أدب الكاتب لابن قتيبة فيه مبالغة ضخمة تخرج مخرج الكذب فان كتابا في نحو خمسمائة صفحة لا يستكثر عليه أن تكون مقدمته

هو الى عشرين صفحة ... ومن جهة أخرى فان الكتاب
معدود من دواوين الأدب الأربعة كما ذكر ابن خلدون ، ولو
أله كان كما ذكر هؤلاء النقاد لما نشط له العلماء بالشرح
والتفسير والعناية كما صنع ابن السيد البطليموسي في كتاب
سماه الاقتضاب في شرح أدب الكتاب وكما فعل « أبو
منصور الجوالقي » و « سليمان بن محمد الزهراوى » •

ان من تمام التعريف بابن قتيبة ان نذكر انه نشط لمدافعة
الشعوبية وهو مذهب شاع في عصره ، فحواه تفضيل غير
العرب على العرب ، وقد ألف ابن قتيبة في ذلك كتابا سماه
« فضل العرب على العجم » أو كتاب العرب وعلومها وقد
قال في مستهله : « جعلنا الله واياك على النعم شاكرين وعند
المحن والبلوى صابرين ، وبالقسم من عطائه راضين ، وأعاذنا
من فتنة العصبية وحمية الجاهلية ، وتحامل الشعوبية فانها
بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق
بها كل رذيلة وتغلو في القول وتسرف في الذم وتبتهت بالكذب
وتكابر الغبان » •

ثم نأتى بعد ذلك الى كتاب « أدب الكاتب » أو « أدب
الكتاب » كما جاء في بعض الروايات والمصادر ، وقد ألف

هذا الكتاب للوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير الدولة العباسية لذلك العهد ، وقد ذكره في المقدمة وأثنى عليه ثناء عظيما . وقد قسم ابن قتيبة هذا المصنف أقساما وسمى كل قسم منها كتابا ، وتلك الكتب هي : كتاب المعرفة ، وكتاب تقويم اليد ، وكتاب تقويم اللسان ، وكتاب الأبنية ، أما كتاب المعرفة ، فقد قسمه أبوابا ، منها باب معرفة ما في السماء والنجوم والأزمان والرياح ، وباب النبات وباب معرفة ما في الخيل . لكن ألطف هذه الأبواب جميعا هو باب أصول أسماء الناس ما سمي منهم باسم النبات كثمارة وطلحة وحنظلة وحمزة وقتادة وما سمي منهم بأسماء الطير كالقطامي واليعقوب والهيثم وعكرمة والسعدانة وما سمي منهم بأسماء السباع كأوس وغنيس وحيدرة وأسامة وثعلبة وهرثمة وكلثوم . وما سمي منهم بأسماء الهوام كالحنش والأرقم وجندب والفرعة .

والكتاب معجم للألفاظ أحيانا حين يذكر أسماء المتضادين ككلمة الجون التي تقع على الأبيض وعلى الأسود والصيريم الذي يقع على الليل والصبح وهو أحيانا كتاب صرف ونحو كتاب « ما » اذا اتصلت كقوله : تقول ادع به شئت اذا أردت سل عن أى شيء شئت نقصت الألف ،

وان أردت سل عن الذى أحببت أتممت الألف فقلت ادع بما
بدا لك •

ولعل خطبة الكتاب التى استطالها بعض الناس تشرح
مقصده منه ، فهو يقول : عملت لمغفل التأديب كتبنا خفافا فى
المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على
لن ، وأعفيته من التطويل والتثقل أفيد به ما ضل من
المعرفة •• ثم قال :

وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الانسانية الا بالجسم
ومن الكتابة الا بالاسم ولم يتقدم من الاداة الا بالقلم
والدواة ولكنها لمن شدا شيئا من الاعراب فعرف الصدر
والمصدر والحال والطرف وشيئا من التصارييف والأبنية •
ان ابن قتيبة فى هذه المقدمة الطويلة يطلب من الكاتب
ما كانت تطلبه العجم منه فقد قال : كانت العجم تقول : من لم
يكن عالما باجراء المياه وحفر فرض المشارب وردم المهاوى
ومجارى الايام فى الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع
النجوم وحال القمر ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع
والمختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدواالى
والنواعير وحال أدوات الصانع ودقائق الحساب كان ناقصا
فى حال كتابته •

الأعلى .. لأبي علي القالي

في سنة خمس وثلاثمائة هجرية كانت قافلة من قوافل المسافرين تدنو من بغداد قادمة من مدينة « قالي قلا » من أعمال ديار بكر ولم يكن المسافرون كلهم من هذه المدينة بل انضم بعضهم اليها في الطريق وبعضهم كان من مدن وقرى قريبة من هذه المدينة .

وكان بين المسافرين في هذه القافلة شاب عالم أو طالب للعلم اسمه ، اسماعيل بن القاسم ، وكنيته أبو علي ، من موالي بلد يسمى « منازلرد » القريبة من قالي قلا ، وكان عمره اذ ذاك لا يتجاوز السابعة عشرة . لكنه قبل أن يدخل بغداد بسنتين ذهب الى الموصل وأقام بها يسمع من علمائها ويأخذ عنهم وهناك قرأ الحديث الشريف على أبي يعلى الموصلى ، وحين دخل بغداد عرف بين الناس بأنه « القالي » نسبة الى « قالي قلا » ولزمته هذه التسمية في حياته وبعد مماته .

وفي بغداد تعلّم وعلمّ وكتب الحديث ، وعلا صيته في الآفاق ، وبقي بها نحو ثلاث وعشرين سنة حين أراد أن يذهب الى الأندلس فذهب اليها تسبقه سمعة علمية واسم ضخم في علوم اللغة والأدب ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلاثمائة في موكب ضخم يحف به العلماء والأدباء وأهل الرأي والفكر .

هذا هو أبو علي القالى ، اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون اللغوى العالم الأديب صاحب كتاب « الأمالى » الذى يعد من أصول كتب الادب واللغة . وصاحب كتب أخرى عظيمة منها كتاب « البارع » فى اللغة الذى بناه على هروف المعجم وكتاب « المقصور والممدود » وكتاب « فى الابل وتناجها » وكتاب « مقاتل الفرسان » وله كتاب شرح فيه القصائد المعلقة .

وكتاب « الأمالى » الذى نحن بصدد الحديث عنه الآن أملاه القالى فى قرطبة على نفر من تلاميذه بناء على رغبة الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر وولى عهده ، ويقال ان الحكم هو الذى كاتبه ورغبه فى القدوم الى الأندلس ، وكان قبل ولايته الأمر وبعد توليه ينشّطه على التأليف

بواسع العطاء ويشرح صدره بالافراط فى التكريم ، وحسن
التقدير •

ويقول « أبو علي » فى المقدمة أنه قد أملى هذا الكتاب
فى أيام الأخمسة بقرطبة ، وفى المسجد الكبير ، مما يمكن
أن نسميه « أحاديث الخميس » اذ كان يملئها كل يوم خميس
بالمسجد •

ويذكر كذلك فى المقدمة أنه ضمّنه فنونا من الأخبار •
وضروبا من الأشعار ، وأنواعا من الامثال ، وغرائب من
اللغات ثم يقول : على أنى لم أذكر فيه بابا من اللغة الا
أشبعته ، ولا ضربا من الشعر الا اخترته ، ولا فنا من الخبر
الا اتخلته ، ولا نوعا من المعانى والمثل الا استجدته ، ثم لم
أخله من غريب القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم
على أننى أوردت فيه من الابدال ما لم يورده أحد ، وفسرت
فيه من الاتباع ما لم يفسره بشر ، ليكون الكتاب الذى
استنبطه احسان الخليفة جامعا ، والديوان الذى ذكر فيه
اسم الامام كاملا •

وهذا الكلام الذى قاله أبو علي فى المقدمة ألزم به نفسه
فى تأليف الكتاب •

هذه الفقرات التى وردت فى مقدمة الكتاب تبين شيئين :
اولهما أن الكتاب قد ألف ردا على احسان الخليفة اليه ،
وعطفه عليه ، والثانى أنه رسم لنفسه خطة تأليف واضحة
فاذا كانت هذه المقدمة قد ألفت بعد تمام الكتاب فانه قد
أبرز أهم الموضوعات التى عالجهما فى صفحاته ، وكتاب
الأمالى من جزئين وله ذيل وقد ألحق أبو علي به كتابا آخر
من جنسه هو كتاب « النوادر » بل ان بعض العلماء يسمى
الكتاب كله كتاب النوادر كخير الدين الزركلى الذى يقول :
« أشهر تصانيفه كتاب النوادر ويسمى أمالى القالى فى
الأخبار والأشعار » .

وهذا الكتاب مجموعة من النوادر والأشعار والأخبار
ومباحث اللغة التى كانت تكون فى مجموعها ما كان يسميه
الناس فى ذلك العصر « الأدب » وعارفها والعالم بها كانوا
يسمونه أحيانا عالما وأحيانا أدبيا ، لأنه كان يعلم المادة التى
يلدب بها الصبيان أو يعلمهم فاذا ألقينا نظرة على كتاب
الرشيد للأحمر مؤدب أولاده وجدنا أنه يحدد له منهجا لا
يختلف فى اجماله عن المادة التى يضمها بين دفتيه كتاب
الأمالى .

ولتقريب مادة هذا الكتاب الى الأذهان نذكر فقرة واحدة من الكتاب لتمثل هذه المادة يقول القالى بعد ذكر اسناده ما رواه : « لما قتل مصعب بن الزبير دخل عبد الملك بن مروان الكوفة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبی محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال : أيها الناس ان الحرب صعبة مرة وان السلم أمن ومسرة وقد زينتنا الحرب وزيناها فعرفناها والفناها فنحن بنوها وهى أمنا أيها الناس فاستقيموا على سبيل الهدى ودعوا الأهواء المردية وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأتمم لا تعلمون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة الا شرا ولن نزداد بعد الأعذار اليكم والحجة عليكم الا عقوبة فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد فانما مثلى ومثلکم كما قال قيس بن رفاعه :

من يصل نارى بلا ذنب ولا ترة
يصلى بنار كريم غير غدار

أنا النذير لكم منى مجاهدة
كى لا ألام على نهى وانذار

لأن عصيتكم مقالى اليوم فاعترفوا
ان سوف تلقون خزيا ظاهر العار

لترجعن أحاديثا ملعنة
لهو المقيم ولهو المدلج السارى

من كان فى نفسه حوجاء يطلبها
منى فانى له رهن بأصحرار

أقيم عوجته ان كان ذا عوج
كما يقوم جزع النبعة البارى

وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه
عندى ، وانى لدراك بأوتار

وبعد أن روى أبو علي نص الخطبة بنثرها وشعرها أخذ
بشرح المفردات شرح المدرس القدير فشرح « زينتنا » وشرح
الادلج والوتر أى الثأر وأتى فى ذلك باللغات المختلفة
مستشهدا بشعر العرب ونثرهم • وفى الكتاب كذلك نحو
وصرف ولغة وقراءات • وشذرات من حكم العرب وأمثالها
وقصائد كاملة وغير ذلك •

نفح الطيب .. للمقرئ

إذا أردت أن تعرف شيئاً عن أية ناحية أندلسية سياسية كانت أو اجتماعية أو أدبية فلن تجد مثل كتاب نفح الطيب ، فانه موسوعة كاملة عن الأندلس يترجم لسانها وأدبائها وبلدانها وأنهارها ووديانها ، ويروى نواذر الأندلسين وطرائف حياتها ويفيض في ذلك افاضة كاملة .

وقد نالت الأندلس - جنة الاسلام الضائعة - من عناية المقرئ واهتمامه ما جعلها تبرز في أذهان المسلمين وتحسب من أملاكهم الفكرية حتى اليوم وان حكمها سواهم منذ قرون طوال .

فمن هو المقرئ وما كتابه نفح الطيب ؟
المقرئ : هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى المقرئ ولد بتلسان وهى مدينة ببلاد المغرب الأوسط ، ونشأ بها وحفظ القرآن وقرأ صحيح البخارى سبع مرات

على عمه الشيخ الجليل ابن عثمان سعيد ابن أحمد المقرئ
مفتى تلمسان •

ووفد على مصر ، بعد أن أدى فريضة الحج في سنة
١٠٢٨هـ ، وتزوج ، ويظهر أنه لم يجد في مصر ما كان يؤمل
من منصب أو جاه الأمر الذي دعاه الى أن يكثّر التمثيل
ببيتين لابن الحاجب هما :

يا أهل مصر وجدت أيديكم
في بذلها بالسخاء منقبضه

لما عدت القرى بأرضكم
أكلت كتبي كأنتى أرضه

كما دعاه ذلك الى أن ينظم شعرا يقول فيه :

لركت رسوم عزى في بلادى
وصرت بمصر منسي الرسوم
ولمسي عفتها بالذل فيها

وقلت لها عن العلياء صومي
الى عزم كحد السيوف ماض
ولكن الليالى من خصومي

وخرج الى الشام بعد عام ، ثم رجع الى القاهرة ومضى
منها الى مكة وأملئ هناك دروسا عديدة ، ووفد على المدينة
المنورة وأملئ الحديث الشريف في المسجد النبوى على طلاب
العلم ثم عاد الى مصر بعد نحو عشر سنوات سنة ١٠٣٩هـ
وسلك منها الى الشام فلقى حفاوة واحتراما وبعد مدة عاد
الى مصر وفاجأه الموت بها فى جمادى الآخرة سنة ١٠٤١هـ
ودفن بمقبرة المجاورين المعروفة بالقاهرة •

والمقرئ بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة وآخرها
راء مهملة نسبة الى (مقرة) بفتح الميم وتشديد القاف
المفتوحة قرية من قرى تلسمان واليها نسبة آبائه •

كان المقرئ وهو بالشام يكثر من الحديث عن تلك
العلاقات الوثيقة التى تربط الأندلس بالشام فان فاتحى
الأندلس هم أهل الشام ، وأكثر أهل الاندلس من عرب
الشام ، وان غرناطة بها أهل دمشق وسموها بأسمها لشبهها
فى النهر والقصر • فطلب اليه رجل سماه المقرئ مرة المولى
أحمد الشاهينى ، وسماه مرة أخرى أحمد أفندى بن شاهين
أن يؤلف عن الأندلس كتابا والى عليه فى ذلك وذكره المرة
بعد المرة وفى ذلك يقول المقرئ فى المقدمة :

« ويراعى أننا حذفنا العبارة المكررة والأطناب الذى لا
يخل حذفه بالمعنى » ويقول :

« وكنا فى خلال الإقامة بدمشق كثيرا ما ننظم فى سلك
المذاكرة درر الألفاظ الملقوطة فينجز بنا الكلام ، والحديث ذو
فجئون ، الى ذكر البلاد الاندلسية ، فصرت أورد من بدائع
بلغائها وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب ما
ثبته المناسبة وتقنضيه .. فطلب منى المولى « أحمد أفندى
ابن شاهين » أن أتصدى للتعريف بلسان الدين بن الخطيب
لمى مصنف ، ولم يجعل لى فسحة ولا مندوحة ثم انى لما تكرر
هلى فى هذا الغرض الالحاح ، عزمت على الاجابة فوعدته
بالشروع فى المطلب عند الوصول الى القاهرة المعزية » ثم
يقول .. انى شرعت فى المطلوب .. : واضربت برهة ..
لجاءتنى من المولى المذكور رسالة دلت على أنه لم يكن عن
التجاوز الوعد متجانفا ، وحصل التصميم على التكميل دعيا
لهذا الولى الحميم ، ولم يكن جمعى لهذا التأليف لرفد
استهديه أو عرض نائل استجديه ، بل لحق ود أؤديه » .

كان اسم الكتاب أولا : « عرف الطيب فى التعريف
بالوزير ابن الخطيب » .

ثم حدث للمؤلف عزم على زيادة ذكر الاندلس جملة
وبعض مفاخرها الباسقة فكان من الضروري تفسير اسم
الكتاب تبعا لذلك ، وقد غيره المؤلف فسماه (نفح الطيب
من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن
الخطيب) وعلى ذلك افالكتاب موضوعه يتعلق بالاندلس
ومفاخرها ولسان الدين ابن الخطيب وترجمة حاله ، وشعره
ونثره وسائر ما يتعلق به ، والمؤلف ذو أسلوب من أساليب
الأطناب والتطويل والحشو ، فان مقدمة الكتاب تقع في نحو
٢٥٧ صفحة في وصف تجواله واستقراره بين الشام والحجاز
ومصر وفيها يذكر سبب تأليف الكتاب على النحو الذى
أوردناه وقد قسم المؤلف كتابه قسمين تبعا لموضوعه :
القسم الأول فيما يتعلق بالاندلس وجملة فى ثمانية أبواب
بين وصف لجزيرة الاندلس - هكذا تجوزوا فى تسميتها
مع أنها ليست جزيرة بالمعنى الجغرافى الصحيح - ثم
سبب تسميتها بذلك وتحديد لها : وفتحها وخص
قرطبة بالباب الرابع ، وجعل الباب الخامس لرجال الاندلس،
والسادس للوافدين عليها والسابع فى توقد أذهان الاندلسيين
وأحوالهم والثامن فى تغلب الأعداء عليها .

والقسم الثانى من الكتاب خاص بلسان الدين
ابن الخطيب ، ومع انه خصص هذا القسم الثانى كله له
الا انه قال فى المقدمة : ولم اخل باقى القسم الاول من
كلام لسان الدين بن الخطيب مع ان القسم الثانى بذلك
قد استقل . والقسم الثانى من ثمانية ابواب الاول فى
اوليته لسان الدين واسلافه والثانى فى نشأته وحياته ،
والثالث فى مشايخه واساتذته والرابع فى مخاطبات الملوك
والاكابر الموجهة الى حضرته والخامس فى نشره ونظمه
وازجاله وموشحاته والسادس فى مصنفاته ما كمل منها
وما اخترمته دون اتمامه المنون والسابع فى تلامذته والثامن
فى اولاده .

وقد توهم المؤلف انه لم يسبق الى مثله فى بابهِ ونقول
توهم لان هذه عبارته « وقد توهمت انى لم اسبق الى
مثله فى بابهِ اذ لم اقف له على نظير يتعلق بأسبابه » والواقع
ان ترجمة الاندلس هذه الترجمة الوافية الشافية من جميع
الوجوه لم توجد فى كتاب قبل هذا الكتاب وان كتابة
المؤلف لا تعدو أن تكون جمعا لما تفرق فى كتب كثيرة
وتواليف متعددة .

إذا اردنا ان نتحدث عن تاريخ حياة هذا الكتاب قلنا انه ألف في سنة ١٠٣٨ هـ و اضيفت اليه اشياء في السنة التي تلتها ١٠٣٩ هـ كما ذكر المؤلف ، وقد اختصره عالم اسمه الجزائري ومن هذا المختصر نسخة في المتحف البريطاني وقد لخصه ونقله الى الانجليزية باسكوال ونشره فى لندن فى مجلدين بين سنتى ١٨٤٠ ، ١٨٤٣ م ثم طبع فى مصر سنة ١٢٧٩ هـ فى اربعة مجلدات تحتوى على ٢٢٠٠ صحيفة كبيرة ، وطبع قبل ذلك فى لندن سنة ١٨٦١ م واخيرا طبع بعضه فى مصر فى الاربعينات من هذا القرن .

لقد نبه المؤلف الى فائدة كتابه فى اكثر من موضع فى المقدمة من ذلك قوله : واعلم ان هذا الكتاب معين لصاحب الشعر ولمن يعانى الانشاء والنثر من البيان والسحر وفيه من الوعظ والاعتبار ما لم ينكره المنصف عند الاختيار وكفاه انه لم ير مثله فى فنه فيما علمت ولا اقلوه تزكية له ويعلم الله انى تبرأت من هذا العارض ومنه سلمت .

الأغاني . للأصمغاني

يقول ياقوت في معج الادباء متحدثا عن ابي الفرج صاحب الاغاني « العلامة نسابة » الاخبارى الحفظة ، الجامع بين سعة الرواية والصدق في الدراية لا اعلم لاحد احسن من تصانيفه في فنّه وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه ، وكان مع ذلك ناعرا ، ونقل ابن خلكان عن التبوخي قوله عن ابي الفرج كان يحفظ من الشعر والاغاني والاخبار والآثار والاحاديث المسندة والنسب ما لم ارقط من يحفظ مثله ، ويحفظ دون ذلك من علوم آخر منها اللغة والنحو ، والخرافات والسير والمغازي ، ومن آلة المنادمة شيئا كثيرا مثل علم الجوارح والبيطرة وتنف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك . وله شعر يجمع اتقان العلماء واحسان الظرفاء الشعراء .

هذا هو ابو الفرج على بن الحسين بن محمد ينتهي نسبة الى مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فهو اذن

قرشي ، وكان اصبهاني الاصل بغدادى المولد ، والنشأة ولد فى سنة مائتين واربع وثمانين هجرية ، ومن اساتذة أبي بكر بن دريد ، وابن الانباري ، وغيرهما وتوفي سنة ثلثائة وسبع وخمسين ، وهي السنة التي مات فيها اديبان كبيران وثلاثة ملوك عظام اما الملوك فهم : سيف الدولة ممدوح المتنبى ، ومعز الدولة البويهى ، وكافور . واما الاديبان فهما الاصبهاني ، وابو علي القالي صاحب الامالي .

وكان الاصبهاني كثير التأليف والتصنيف له الاغاني الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وله كتاب «القيان» وكتاب «الاماء الشواعر» وكتاب «دعوة الاطباء» وكتاب «مقاتل الطالبين» وقد اتصل بالملوك الامويين بالاندلس ، وصنف لهم كتباً قيمة ثم سيرها اليهم سرا ، وجاء الانعام منهم سرا كذلك ، ومن هذه الكتب كتاب «نسب بنى شمس» وكتاب «ابام العرب» ضمنه الفا وسبعمائة يوم من ايامهم ، وكتاب «التعديل والاتصاف فى مآثر العرب ومثالبها» . وكتب اخرى كثيرة . ومع عظمة ابي الفرج العلمية والادبية فقد رووا انه كان لا يعنى بشيابه ولباسه ، فلا يخلعها الا بعد ابلائها وتمزقها ، ولا يعرف لها غسلا ومما قالوه انه كان نديما للوزير المهلبى ،

وكان الوزير يحبه ويصبر على كل صعب من امره في مجالسته ومؤاكلته ومشاربته لوساخة هيئته وثيابه ونعله •

وكتابه « الأغاني » هو اعظم كتبه باتفاق الآراء صنفه كما يقولون في نحو خمسين سنة وكتبه مرة واحدة في عمره وهي النسخة التي أهداها الى سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب فاعطاه في مقابلها الف دينار من الذهب واعتذر اليه •

ومما روه ان صاحب بن عباد الاديب الوزير المعروف كان في اسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الادب ليطلعها ، فلما وصل اليه كتاب الاغاني لم يكن يستصحب سواه • استغناء به عنها • وانه كان جليسه الذي يأتي اليه وحديثه الذي يرتاح نحوه •

كتاب الاغاني موسوعة للادب العربي واخبار العرب وايامها اداره على اصل موسيقى ، وهو المائة صوت التي اختارها من اصوات المغنين وبداهها بالاصوات الثلاثة المختارة للرشيد فترجم لشعرائها وهم : « ابو قطيفة » • « عمر ابن ابي ربيعة » و « نصيب » • الخ ومادة هذا الكتاب العظيم تتمثل في ما ترجمه صاحبه لاكثر شعراء العرب

من جاهليين واسلاميين ومحدثين كما ترجم لكل من عرف اسمه من المغنين في الدولتين الاموية والعباسية ، وبث في ذلك ايام العرب ووقائعها وقصص الملوك والخلفاء وتستطيع من الاشعار التي رواها في صفحات كتابه الفذ ان ترسم صورة صحيحة صادقة لعصور الادب المختلفة لكن ابا الفرج لم يتأق في ترتيب كتابه اخذا بمذهبه في ثيابه ونعله فانت لا تستطيع ان تظفر بترتيب مفيد للشعراء والمغنين ، وعلى سبيل المثال فان ابا الفرج بدأ بأبي قطيفة الشاعر ، ثم بعمر ابن ابي ربيعة ونصيب ولا يمكن ان يجمع هؤلاء تصنيف واحد .

ولهذا لا نجده يصنف الشعراء ، ولا نجده يصنف المغنين ، ونثر اخباره واشعاره ونوادره نثرا على غير نظام كما يقول الشيخ « محمد الخضري » وكان ابو الفرج يتحيز للغناء فهو يروى الاشعار كما لحنها ، وتغنى بها المغنون لا كما نظمها الشعراء في كثير من الحالات .

ومثل ذلك وغيره من مشاق استيعاب مادة الاغاني هو الذي حفز بعض العلماء الى اختصار الكتاب وتهذيبه بل ان ذلك هو ما أحس به ابو الفرج نفسه وتحدث عنه فقد ذكروا ان له كتابا اسمه « مجرد الاغاني » .

لقد عمد الشيخ « محمد الخضرى » الى كتاب الاغانى
فَهَذَبه وتمثل هذا التهذيب فى وضع تصنيف للشعراء
والمغنيين وجعل الكتاب على قسمين : الاول فيه اخبار
الشعراء وما قرضوا من الشعر والثانى فيه اخبار المغنيين
وما وضعوا من الالحان والاصوات ثم هو قد رتب الشعراء
ثلاث طبقات الاولى طبقة الشعراء الجاهليين ، وقسمهم
على حسب قبائلهم ، وذكر من بينهم أمراً لقيس والشنفرى
وكعب بن مالك والمرقس ، والطبقة الثانية طبقة الشعراء
الاسلاميين وذكر من بينهم الاخطل والفرزدق وجريرا
والطبقة الثالثة طبقة الشعر المحدثين وقد ذكر منهم مسلم
ابن الوليد والضحاك وابا العتاهية وابا تمام .

اما الشعراء المخضرمون فقد ذكر مخضرمى الجاهلية
والاسلام مع الجاهليين وذكر مخضرمى الاموية والعباسية
مع الامويين .

وكان من جهد الخضرى اتمام بعض القصائد والايات
وحذف الفاحش من الكلام مما لا يقبله العصر وان كانت
الروح العلمية تأبى ذلك . كذلك اسقط الخضرى مالا فائدة
منه من اسماء الرواة والاسانيد . والكتاب الاصلى يقع فى

واحد وعشرين جزءا اختصره الشيخ الخضرى الى عشرة
أجزاء من قطع متوسط •

لقد كان أبو الفرج أمويا كما عرفنا ومع ذلك فقد
كان شيعي الهوى ، وهو شأن عجب له مؤرخوه • كما كان
شاعرا يستطاب وصفه ويخشى هجاؤه ، ومن احسن شعره
قصيدة شكا من فأر قرض ثيابه ووصف فيها قطا استعان
به على هذا الفأر يقول فيها أبو الفرج :-

خلقت° للفساد مذ خلق الخلق

وللعيث والاذى والخسراب

آفات قرض الثياب وقد يعدل

قرض القلوب قرض الثياب

زال همى منهن أزرق تركى

السبالين انمر الجلباب

ناصب طرفه ازاء الزوايا

وازاء السقوف والابواب

ينتضى الظفر حين يظفر للصيد

والا فظفره فى قسراب

حبذا ذاك صاحباً هو فى الصحبة

أوفى من اكثر الأصحاب

أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ .. لِلزَّمْخَشَرِيِّ

أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ نَوْعٌ مِنْ مَعَاجِمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، يَعْنِي أَعْظَمَ الْعَنَاءِ بِتَبْيِينَ الْحَقِيقَةِ مِنَ الْمَجَازِ ، يَهْتَمُّ — كَمَا يَقُولُ الْمَرْحُومُ الْأَسْتَاذُ أَمِينُ الْخَوْلِي بِأَثَرِ الْأَسْتِعْمَالِ فِي حَالَةِ الْكَلِمَةِ وَيُعْطِينَا مَوَادَّ لِمَعْرِفَةِ اسْتِعْمَالِ الْكَلِمَاتِ حَتَّى الْقَرْنَ السَّادِسَ — وَهُوَ الْعَصْرُ الَّذِي أَلْفَ فِيهِ مَعْجَمُ أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ لِلزَّمْخَشَرِيِّ وَيُعْطِينَا كَذَلِكَ شَيْئًا عَنْ إِيحَاءِ الْكَلِمَةِ وَوَقْعَهَا عَلَى نَفْسٍ سَامِعِهَا فَانِ الدَّلَالَةِ الْمَعْجَمِيَّةِ الْمَجْرَدَةِ — كَمَا فِي الْمَعَاجِمِ الْأُخْرَى — لَا تَقْدَمُ إِلَى الْأَدْبَاءِ وَاصْحَابِ فَنِ الْقَوْلِ شَيْئًا يَذْكَرُ .

وَصَاحِبُهُ هُوَ (جَارُ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِ الزَّمْخَشَرِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ) مِنْ أَيْمَةِ الْعِلْمِ بِالْدِّينِ وَالتَّفْسِيرِ وَاللُّغَةِ وَالْأَدَبِ أَوْ كَمَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ : اسْتَاذُ الدُّنْيَا وَشَيْخُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَفَخْرُ خَوَارِزْمَ ، وَلَدَ فِي زَمْخَشَرٍ وَإِلَيْهَا نَسَبٌ ، وَهِيَ أَحَدَى قُرَى خَوَارِزْمَ ، وَسَافَرَ إِلَى مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ فَجَاوَرَ بِهَا زَمَنًا ، وَبِذَلِكَ لِقَبُولِهِ جَارَ اللَّهِ أَوْ هُوَ قَدْ لُقِبَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ تَشْرَفًا

بجيرة البيت العتيق فلحق به هذا الاسم واشتهر به وتنقل
فى البلدان ، ثم عاد الى الجرجانية وتوفي بها وذكر ابن
خلكان ان احدى رجليه كانت ساقطة ، ولذلك كان يمشى
بمعونة الخشب ويسبل عليه الثياب •

وسبب ذلك كما يذكرون انه كان فى بعض رحلاته
ببلاد خوارزم فأصابه ثلج كثير وبرد شديد فى الطريق ،
فسقطت منه رجله وانه كان بيده وثيقة تتضمن شهادة خلق
كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفا من ان يظن من لم
يعلم صورة الحال انها قطعت لجريمة وذكر ابن خلكان ايضا
ان ذلك يحدث للناس كثيرا فى خوارزم ، وانه شاهد خلقا
كثيرا ممن سقطت اطرافهم لهذا السبب وفى بعض المصادر
ان الزمخشري سئل عن ذلك فقال ان سببه دعاء الوالدة
ويتحدث عن ذلك يقول : انى كنت فى صباى امسكت
عصفورا وربطته بخيط فى رجله فأفلت من يدي فادركنه وقد
دخل فى خرق فجذبته فانقطعت رجله فتألمت والدتى لذلك
وقالت : قطع الله منك ما قطعت منه ، فلما وصلت الى سن
الطلب — والحديث للزمخشري — رحلت الى بخارى لطلب
العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلى وعملت على عملا

اوجب قطعها والله اعلم بالصحة •

ولكن هذه العاهة الضخمة فى بدنه لم تمنعه من ان يكون علامة عصره ومفرد زمانه ولغوى دهره فله مؤلفات كثيرة منها « أساس البلاغة » وهو المعجم الذى نحن بصددہ ومنها « المفصل » فى النحو ، وهو غاية الغايات فيه ، ومنها « الكشف » فى التفسير ويستشهد فيه كثيرا بالشعر وقد استطاع بعض الباحثين ان يؤلف من الشواهد الشعرية للكشاف مجموعة ضخمة من الشعر ، وقرظه ابن خلكان فقال: لم يصنف قبله مثله ، وللزمخشري كتاب « ضالة الناشر والرائض فى علم الفرائض » وله « المفرد والمركب » فى العربية وله « الحاجة بالمسائل النحوية » ، وله « المستقصى فى أمثال العرب » و « القسطاس » فى العروض و « المنهاج » فى الاصول وكتب كثيرة اخرى تبحث فى كل فن وعلم كان معروفا فى ايام الزمخشري ، ومعنى ذلك ان ابا القاسم الزمخشري كان دائرة معارف وموسوعة تمثل العلم فى القرن السادس الهجرى لانه ولد فى عام سبع وستين واربعمائة وتوفى عام ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة وللزمخشري شعر بل ان بعض المصادر قد ذكر ان له ديوانا من الشعر ولكنه لا يزال مخطوطا ، ويغلب على شعره الطابع الذى يغلب على

شعر العلماء ومن ذلك ما رثى به الزمخشري استاذنا له
اسمه ابو مضر حيث يقول :

وقائلة ما هذه الدرر التي
تساقط من عينيك : سمطين سمطين

فقلت هو الدر الذي كان قد حشا
ابو مضر اذنى تساقط من عيني

ويظن بعض الباحثين ان الابيات التي اوردها في الكشف
عند تفسير قوله تعالى : (ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا
ما بعوضة فما فوقها) - يظن ان هذه الابيات له ويقول فيها :

يامن يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الاليل

ويرى عروق نياطها في نحرها
والمخ في تلك العظام النحل

اغفر لعبد تاب من فرطاته
ما كان منه في الزمان الاول

قالوا واوصى الزمخشري ان تكتب هذه الايات
على لوح قبره •

يذكر الزمخشري في مقدمة كتابه اساس البلاغة ان
خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين
وانطوى تحت استعمالات المعلقين او ماجاز وقوعه فيها
وانطوى تحتها من التراكيب التي تملح وتحسن ولا تنقبض
عنها الا لسن ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف
وتعريف مدارج الترتيب والترصيف بسوق الكلمات
متناسقة لا مفرقة بددا ومتناظمة لا طرائق قددا ، مع
الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية الى مرشد حر المنطق
الدالة على ضالة المنطيق المفلق ومنها - اي من خصائص
اساس البلاغة تأسيس قوانين الخطاب والكلام الفصيح
بافراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح •

ثم يقول الزمخشري فمن حصل هذه الخصائص ،
وكان له حظ من الاعراب الذي هو ميزان اوضاع العربية
ومقياسها ومعيار حكمة المواضع وقسطاسها واصاب ذروا
(اي شيئا قليلا) من علم المعاني ، وحظي برش من علم
البيان ، وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة ، وسليقة

سليمة فحل نثره وجزل شعره •

نسجل هنا ان الزمخشري يتحدث عن الموهبة كشرط
اساسي ليكون الانسان اديبا : شاعرا أو ناثرا •

وقد يكون من الملائم ان نذكر ان اساس البلاغة
مرتّب باعتبار الحرف الاول مع الثاني وفقا لترتيب الحروف
العربية •

أ ب ب • أ ب ر • أ ب س وهكذا وقد يكون من
الملائم كذلك ان نذكر مثلا من الكتاب يدل عليه •

مادة اخذ : ما انت الا اخذ نباذ لمن يأخذ الشيء حريصا
عليه ثم ينبذه سريعا وفلان اخذ في يد العدو وهو اسير
فتنة واخذ محنة •

وذهبوا ومن أخذ اخذهم • ولو كنت منا لأخذت
بأخذنا أي بطريقتنا وشكلنا ؟

لسان العرب .. لسان منظور

العرب اسبق الامم الى وضع المعاجم اللغوية ، ونريد بالمعاجم اللغوية تلك الكتب التى ترتب فيها الالفاظ على حروف المعجم ، او على المعانى المتشابهة او المتقاربة •

وقد كان رواة اللغة كالاصمعى وابى عبيدة وغيرهما يروون ما يسمعون او يأخذونه عن سماعه ويدونونه او ينقلونه وكان من منقولاتهم ومروياتهم اشعار العرب واخبارهم وامثالهم ، والفاظهم ، وعلومهم ، وآدابهم ، دونوا ذلك أولا فى كتب مستقل كل كتاب منها بموضوع ككتاب الابل وكتاب الخيل والنبات والنخيل للأصمعي وكتاب اللبن وكتاب المطر لابی زيد الانصارى ونحوهما •

لكن أول من رتب الفاظ اللغة ترتيبا متفقا مع الحروف الابدجية هو الخليل بن احمد الفراهيدى البصرى اذ الف فى ذلك كتابا اسمه « كتاب العين » وقد رتب على حسب مخارج الحروف من حلق المتكلم فبدأ بحرف العين لانها

ابرز الحروف الحلقية •

وقال احد العلماء : ابداع الخليل بن احمد بدائع لم يسبق اليها فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف في الكتاب المسمى بكتاب العين فانه هو الذى رتب ابوابه وتوفي قبل ان يحشوه •

وعلى ذلك فان كتاب العين للخليل بن أحمد هو أول معجم لغوى في اللغة العربية ، بل هو أول معجم لغوى في العالم •

وتوالى بعد الخليل المتوفي سنة ١٧٠هـ ظهور المعاجم اللغوية العربية فظهر بعده معجم اسمه « الجهرة » لابن دريد المتوفي سنة ٣٢١هـ ثم « البارع » لأبى علي القالى ، وتوالى بعد ذلك ظهور المعاجم كالتهذيب للازهري والصحاح للجوهري ، والمحكم والمخصص لابن سيده والعباب للصاغاني وغيرها •

وحدثنا هنا حول « لسان العرب » ونريد أن نمهد بين يدي كلامنا بكلمة عن تنظيم المعاجم ، فالمعاجم أنواع كثيرة منها نوع يرتب على حسب ترتيب الالفاظ والمفردات ونوع يرتب على حسب معانى الالفاظ والمفردات ، وقواميس المعانى

كثيرة ومشهورة منها مثلاً : « المخصص » لابن سيده
« وفقه اللغة » للشعالبي و « الافصاح » للصعيدى فهذه
تعنى بجمع المعانى فهى تتحدث مثلاً عن اللسان فتأتى بكل
الألفاظ التى تتعلق به فى موضوع واحد مهما اختلفت
أوائلها أو أواخرها وتتحدث عن النبات فتأتى بكل الألفاظ
التي تدور فى فلكه ، وهكذا المعانى مرتبة بحيث يسهل
الرجوع إليها ، فإذا أردنا مثلاً معرفة أسماء أوقات النهار
رجعنا الى باب الزمن ، ومثل هذه المعاجم تعين المترجمين
والباحثين لمعان يعرفونها عن مفردات عربية تدل عليها •

أما معانى الألفاظ فهى الأخرى تنقسم أقساماً حسب
ترتيبها ، فمنها ما يعتد بالحرف الأول من الكلمة فكلمة شمس
فى باب الشين وكلمة فأس فى باب الفاء ، ومنها ما يعتد
بالحرف الأخير من الكلمة فكلمة شمس وفأس فى باب واحد
هو باب السين •

وهناك معاجم الألفاظ تختص بالجانب البلاغى فتذكر
اللفظة بين عبارتها وتذكر دلالتها ، وذلك كأساس البلاغة
للمخشى وقد رتبته برعاية حروف أوائل الكلمات •

ومعجم « لسان العرب » معجم ألفاظ ، رتبته صاحبه

برعاية الحروف الأخيرة من الكلمات فالكلمات شمل وجبل
وقتل في باب واحد ، هو باب اللام ، ولكن كل باب ينقسم
الى فصول يراعى في ترتيبها أوائل الكلمات فكلمة شمل في
باب اللام فصل الشين ، وكلمة جبل في باب اللام فصل
الجيم ، وهكذا ..

والفرق بين اللسان والمخصص لابن سيده انك تعرف
من المخصص اللفظ والألفاظ لمعنى معروف أما لسان العرب
فانك تعرف منه المعنى أو المعانى للفظ معروف فالألوان مثلا
تجدها في المخصص في باب واحد أما اللسان فانك تجد
الأحمر في باب الراء فصل الحاء والأبيض في باب الضاد
فصل الباء •

ان لسان العرب ليس تفسيرا مجردا للكلمات ولكنه
يحفل بتفسير قرآن ، وحديث وفقه وشعر ولغة ونحو
وصرف ، وهو الى ذلك يعتنى أوفى العناية بتفسير شواهد
الشعرية المتقاة ولا يحرم القارئ من ذكر النوارد والطرف
والحكايات والقصص التى لها تعلق بالكلمات ، والملاحظ
أن استشهاده بالشعر كثير جدا وأن الآيات القرآنية الشريفة
التى يستشهد بها لا تمر من غير أن يذكر تفسيرها الكامل ،

وما فيها من قراءات وفي الآية الشريفة « ان ناشئة الليل هي أشد وطئا » فسر المعنى وذكر قراءات ابن كثير ونافع ، وعاصم وحزمة والكسائي وابي عمرو وابن عامر ، بل انه في لفظتى ذواتا أفاض فى الحديث عنهما من كل وجهة وتحدث عن تصغيرهما وتشنيتهما وجمعهما •

والحق أن هذا المعجم موسوعة كبرى فان « ابن منظور الافريقى » مؤلفه لا يترك شيئا يتعلق بأية مادة في كتابه دون أن يدرسه دراسة عميقة وافية •

وابن منظور هو محمد بن المكرم بن منظور الانصارى الافريقى المصرى ، كان يذكر أنه ينسب الى رويفع بن ثابت الانصارى وقد ولد سنة ٦٣٠ هـ ، وخدم في ديوان الانشاء وولى قضاء طرابلس الشام وكان صاحب فكاهة ونوادر • كما كان شديد الولع باختصار الكتب تيسيرا للارتفاع بها ومن أشهر مختصراته :

- (١) لطائف الذخيرة لابن بسام •
- (٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر •
- (٣) مختصر تاريخ بغداد للسمعانى •
- (٤) مختصر مفردات ابن البيطار •

(٥) مختصر الأغاني لابی الفرج الاصفهاني •

وقد توفي وهو في الحادية والثمانين من عمره سنة ٧١١هـ
وقد استقى ابن منظور مادة كتابه من أصول خمسة
وقرر في صراحة تامة أنه لم يخرج عما في هذه الأصول •
وهي :

تهذيب اللغة للأزهري - المحكم لابن سيده - الصحاح
للجوهرى وحواشيه لابن برى - الجمهرة لابن دريد -
النهاية لابن الأثير •

وقد طبع لسان العرب « لأول مرة في مصر طبعة أميرية
في عشرين مجلدا واستغرق الطبع ثمانى سنوات من سنة
١٣٠٠هـ الى سنة ١٣٠٨ ، وبأول هذه الطبعة تقريظ لأحمد
فارس الشدياق » ، وفى سنة ١٣٤٨هـ ابتدئ بطبعة ثانية
بالمطبعة السلفية بتعليقات العلامة أحمد تيمور باشراف
الأستاذ / عبد العزيز الميمنى الراجكوتى والمستشرق
كرانكو ولكن لم يصدر منه غير جزءين فقط في حجم
متوسط •

وبعد ذلك بعدة سنوات ابتدئ بطبعه طبعة ثالثة تنكر

فيها الطابع لترتيب المؤلف ثم طبع في مصر أخيرا طبعة كاملة صحيحة •

الكتاب موسوعة ومعجم وهو في هذا المجال يذكرنا بالمعجم الكبير الذى أصدر مجمع اللغة العربية جزءا منه اشتمل على حرف الهمزة فقط في نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير ففى هذا المعجم الأخير ثلاثة جوانب أساسية جانب منهجى هدفه الأول دقة الترتيب ووضوح التبويب ، وجانب لغوى عنى بأن تصور اللغة تصويرا كاملا فيجد فيها طلاب القديم حاجتهم ، ويقف عشاق الحديث على ضالتهم وفيه أخيرا جانب موسوعى يقدم ألوانا من العلوم والمعارف تحت أسماء المصطلحات أو الأعلام وروعى في هذا الجانب الجمع بين الحديث والقديم ما أمكن •

المستطرف .. للأبشي

في عهد دولة المماليك بمصر ، في القرن التاسع الهجرى (والخامس عشر الميلادى) كان الأدب قد بلغ غاية من الضعف ليس بعدها غاية ، كانت اللغة العربية قد أضمحلت حتى في الديار العربية نفسها بسبب تغلب غير العرب ودخول كثير من الكلمات الأعجمية في حياة الناس ، واطلم أفق الحياة الأدبية فلم يعد الشعر في أحسن حالاته الا ترديدا مقلدا لمعانى الاقدمين في عبارات وأساليب لا تستطيع أن تدانى عبارات الاقدمين وأساليبهم ، لفرط ضعفها واثقالها بالمحسنات اللفظية التى ليس وراءها طائل •

وتبعاً لذلك فقد نشط المؤلفون في هذا العصر الى الجمع والتصنيف فكانت معظم مؤلفات العصر كتباً جامعة لشتات كثير من الموضوعات والمعانى ، ومنقولة من كتب السابقين اذ يقتصر جهد المؤلف على الجمع والتصنيف •
وبين أيدينا من مؤلفات ذلك العصر كتاب مشهور ،

المؤلف - هو أيضا مشهور أما الكتاب فهو « المستطرف من كل فن مستطرف » وأما المؤلف فهو الابشيهي : بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور المحلى ونسبته كما جاء في أعلام الزركلى الى أبشويه أو كما جاء في المعجم الكبير الى أبشيه (ابشواى) لكن الزركلى قال ان أبشويه قرية من قرى الغربية بمصر ، أما المعجم الكبير فقد صحح ما وهم فيه صاحب الاعلام ، فذكر أنها من قرى الفيوم والظاهر أن هذا الوهم قد جاء من نسبته الى مدينة المحلة الكبرى التى أقام بها الابشيهي لكن اقامته بالمحلة الكبرى لاتستطيع أن تنفى نسبته الى أبشيه أو ابشواى الفيومية •

وللابشيهي غير المستطرف كتاب في الوعظ اسمه (أطواق الأزهار) ويقولون أن أسلوبه على العموم أسلوب ليس فيه مزية بلاغية أو بيانية •

وكان الابشيهي شاعرا ، روى لنفسه كثيرا من شعره في ثنایا كتابه « المستطرف » فقد ذكر في الباب الثانى والسبعين في ذكر رقائق الشعر والموايا والدوييت وكان وكان والموشحات والزجل لنفسه شعرا قدمه بكلمة يبدى فيها التواضع فقال : ولؤلفه رحمه الله تعالى وهو قول

ضعيف على قدر حاله ، لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله
ستر ما يراه من عيوبه وان يدعو له بمغفرة ذنوبه : وقد
قال في هذا الشعر

نسيم الصبا بلغ سليمى رسائلى
بلذف وقل عن حال صبك سائلى

فقد صار بالاسقام صبا معذبا
قريح جفون من دموع هوامل

صبورا على حر الغرام وبرده
حليف الضنى لم يصنع يوما لعاذل

ولكننا نعذر الشاعر الابشيهى فهذه سمات الشعر في
عصره ، وتلك هى الطريقة التى كانت تصاغ بها الأشعار .
ونلتفت من هذا المنطلق الى الشعر الذى ضمنه الابشيهى
كتابه فنجد قد جمع الغث والسمين وضم الجيد والردىء .

وكتابه المستظرف من كل فن مستظرف كتاب مؤلف
للسمر والسمار ففي هذا العصر قربت المسافة جدا بين منزلة
الأديب ومنزلة النديم الذى يتخصص في اضحاك الامير
أو الوزير أو الثرى وتسليته وتكون وسيلته الى هذه التسلية

رواية النوادر والفكاهات والحكايات والأشعار فلا بد اذن أن يكون لهذا المجتمع كتبه التي تناسب مجالسه حول موائد الطعام والشراب أو حول المدافىء في ليالى الشتاء • وكان من هذه الكتب المستظرف ، وليس للابشيهى جهد ملحوظ في كتابه الا الجمع والتصنيف •

يدور الكتاب على أربعة وثمانين بابا، ينقسم كثير منها الى فصول وقد قلنا ان الكتاب يجمع المعارف العامة التي كانت سائدة في ذلك العصر والتي كانت موضوعا لاحاديث الناس وسمهم ، ولكن المؤلف أضاف الى الفصول المسلية فصولا أخرى جادة كالحديث عن الاسلام واركانه والاخلاص لله تعالى وصفاته والقرآن وفضله والأحاديث والأمثال ذلك الى جانب أبواب عن السرقة والسراق والرشوة والمرتشين وصفات النساء المحموده ، وصفاتهن المذمومة ونوادر النواتية والمعلمين والبخلاء والفقهاء والنحويين والى جانب فصول في الألغاز المنظوم منها والمنثور ومن أمثلة ما أورده من الألغاز هذا الشعر :

وما اسم سداسي اذا ما لمحتنه

ترى فيه أجزاء تدم وتشكر

له ثلث يأتى به الموت فجأة
وثلث مع الكتاب يطوى وينشر
وثلث رعاك الله يا صاحبي له
على مدد الأيام نشر معطر
وفي نصفه لما تحرك بعضه
حديث شهى في الليالى يذكر
وفي نصفه الثانى اذا ما اعدته
الى النار للتحويل والعقد سكر
ففسر لنا ذا اللغزان كنت ذا حجي
فليس على ذى العقل لغز معسر
قد يكون المقام محتاجا الى حل هذا اللغز ، واللغز عن
مدينة (سمرقند) من ستة أحرف ثلثها حرفان سين وميم
والناظم يقول عن هذا الثلث له ثلث يأتى به الموت فجأة
والثلث الثانى راء وقاف أى رق والرق صحيفة الكتابة
والناظم يقول عن هذا الثلث وثلث مع الكتاب يطوى وينشر
أما الثلث الثالث فمكون من النون والبدال (ند) والند
خشب طيب الرائحة والناظم يقول فيه :

وثالث رعاك الله يا صاحبى له

على مدد الايام نشر معطر

ثم يقسمه الى نصفين النصف الأول سمر وفيه يقول
الناظم :

وفي نصفه لما تحرك بعضه

حديث شهى فى الليالى يذكر

أما النصف الثانى فهو القند أى العسل الأسود وعنه
يقول :

وفي نصفه الثانى اذا ما أعدته

الى النار للتحويل والعقد سكر

هذا الكتاب صورة تمثل أكثر من جانب من جوانب عصر
مؤلفه فهو يصور معارف العصر ، وهو يصور مستوى الذوق
الأدبى فيه وهو يصور نشاط صناعة السمر والمنادمة ومادتها
الأساسية التى تقوم عليها لكن المؤلف رحمه الله تعالى حين
قصر جهده على النقل دون تحقيق ما ينقله وقع فى أخطاء
كثيرة من أمثلتها ما نسبته من الشعر الى سيف الدولة
الحمدانى فى وصف أحد السقاة وجاء خطأ الابشيهى من

أنه نقله من كتاب يتيمة الدهر للثعالبي دون تحقيق أما
الأبيات التي نسبت الى سيف الدولة ففيها وصف لقوس
قزح يقول فيه :

يطرزها قوس السماء بأصفر
على أحمر في أخضر تحت مبيض
كاذيال خود أقبلت في غلائل
مصبغة والبعض أقصر من بعض
والأبيات على التحقيق للشاعر على بن العباس المعروف،
بابن الرومي •

سَفَاءُ الْفَلِيلِ .. لِلْخَفَاءِ جِي

لقد دخل اللغة العربية في شتى العصور - منذ كثر اختلاط العرب بغيرهم من الأمم كلمات لم تكن من اللسان العربى ، وانما ترجع في أصولها الى تلك الأمم التى اختلط بها العرب ، لذلك نجد في اللغة العربية كلمات هندية الأصل أو فارسية أو رومية أو قبطية أو سريانية أو عبرانية وكذلك حَرَّفَ العامة بعض صحيح اللغة وظهرت أساليب وتعبيرات كثيرة أنشأتها الظروف والأحوال الاجتماعية ، ولم تكن موجودة في الأصل وهناك كلام صحيح أكثرت العامة من استعماله فابتذل فقل أو فنى من كلام الادباء والشعراء فظن بعض الناس خطأه وهو عين الصواب •

كان لابد - اذن - من كتاب يفصل القول في هذا كله ، ويبين ما في كلام العرب من الدخيل ، والمولد ، مع بيان العربى الذى يظن بعض الناس أنه غير أصيل النسب الى لغة العرب فقام بهذه المهمة الجليلة عالم عربى من علماء القرن الحادى عشر الهجرى ، هو شهاب الدين أحمد بن محمد

الخفاجى المصرى المولود بسرياقوس ، قرية قريبة من القاهرة ، والذي تلقى علومه بالجامع الأزهر ثم رحل الى الحجاز ومضى الى الاستانة وكانت وفاته سنة ألف وتسع وستين هجرية • وقد ألف الشهاب الخفاجى هذا كتابا قيمة هى (شفاء الغليل) فيما فى لغة العرب من الدخيل الذى نحن بصدد الكلام عنه الآن ، (شرح درة الغواص فى أوهام الخواص) للحريرى وهو أقرب الى النقد منه الى الشرح ثم هو أخيرا ألف كتابا يسجل فيه تعريفات ببعض أدباء عصره سماه « ريحانة الالباء » •

يقول الشهاب الخفاجى فى مقدمة الشفاء « جمعت فيه ما فى كلام العرب من الدخيل دعانى اليه أن المغرب ألف فيه قوم منهم من لم يحم حول نأديه ، ومنهم من دقق فى التخرىجات العربية وضممت اليه قسم المولد وهو الى الآن لم يدوّن فى كتاب ، يقصد بذلك أن كتابه أول كتاب فى اللغة العربية عنى بأمر المولد فدوّنّه وبجثّه ثم يتابع الشهاب الخفاجى قوله فى المقدمة : « وقد أوردت فيه ما يسر الناظر ويشرح خاطر مع شيء من الرد والنقد ولطائف أدبية » •

كتاب شفاء الغليل قسمان : مقدمة ومعجم للكلمات •

أما المقدمة فقد بدأها المؤلف بذكر الأعجمى والصحيح منه وذكر الآراء المختلفة فيه اذا ورد في لغة العرب وهنا خصص جانباً من البحث للأعجمى الذى ورد في آيات القرآن الكريم وذكر صفوة الآراء في هذا الموضوع ، وعمدتها (أى أقواها وأعظمها فى ذلك رأى الشيخ ابى منصور الجوالقى المتوفى سنة ٥٣٩هـ وهو أن هذه الالفاظ أعجمية بحسب أصلها ولكنها لما عربت صارت من اللسان العربى) •

وألحق المؤلف بذلك فصلاً ممتعاً عن تغيير اللفظ العربى وابداله حتى يوافق اللهجة العربية وأوزانها وحالاتها المختلفة ثم فصلاً فى اطراد الابدال فى الفارسية وفى اثنائه ذكر العلامات التى يعرف بها اللفظ العربى من اجتماع حروف فيه لا تجتمع فى لفظ عربى أو وجود أوزان صرفية لم تعرف فى أوزان الكلمات العربية ، وفى هذا الفصل بث فوائد علمية متفرقة كالأعجمى من أسماء الانبياء والعربى منها وكنعجيم العربى نظير تعريب الأعجمى •

وبعد هذه المقدمة البديعة يأتى معجم الكلمات وقد رتبته على وفق ترتيب حروف المعجم ولكنه لم يراع الترتيب الا فى الحرف الأول تاركاً ما عداه غير ناظر الى الحروف

الأصلية أو الزائدة فقد ذكر كلمة « آب » بعد كلمة « أيوه » وبعد أربع وسبعين كلمة تسبقها كلها كلمة « آب » عند الترتيب الصحيح .

والخفاجى فى الشفاء ينسب أكثر ما ذكره الى أصحابه الذين نقل عنهم ، وقد أكثر النقل عن الأزهرى ، والجوهرى ، والزمخشرى ، وابن هشام ، والثعالبى ، والكسائى ، والزبيدى ، وغيرهم من كبار علماء اللغة .

ولاتمام الفائدة من الحديث عن الكتاب نعرض بعض أمثلة من قسم المعجم فيه فهو يقول مثلاً « قيصر : معرب من الرومية » ، و « قرقس الطين الذى يختم به فارسى معرب » و « أوج » كعرب من كلمة أود بالبدال بدلاً من الجيم وهى كلمة هندية معناها العلو والارتفاع ثم « الصبر » نوع من السمك سريانى معرب » .

وهذه الأمثلة التى سقناها توضح اللغات المعرب عنها .

وفى مجال تصويب ما لحنى العامة فيه يذكر قدف ويقول ان صوابه جدف وفى مقام ارجاع بعض الكلمات التى تظن عاميتها الى أصول عربية صحيحة يذكر كلمة قرافة فيقول

ان قرافة اسم من أسماء بطن من قبيلة اسمها معافر نزلت
محلة بقرب القاهرة فعرفت باسمها وهى الآن مقبرة كما يذكر
أن كلمة « أيوه » التى نطق بها العامة عربية صحيحة وهى
مؤلفة من ثلاث كلمات أى بمعنى نعم ، فى القسم خاصة
والواو واو القسم بقيت دليلا عليه وحذفنا ما عداها ثم تجيء
فى آخر الكلمة هاء السكت فليست كلمة أيوه خطأ كما
يتوهم بعض الناس ♦

هناك كتب سبقت الشفاء الى البحث فى مثل موضوعه
أو فى قريب من موضوعه مثل كتاب « المعرب » فيما تكلمت
به العرب من الاعجمى لابی منصور الجواليقى ، وقد أشار
اليه الشهاب فى مقدمة الشفاء وكذلك كتاب (التكملة)
للجواليقى أيضا ثم كتاب (درة الغواص فى أوهام الخواص)
للحريرى صاحب المقامات وقد عنى الشهاب الخفاجى به
فشرحه ونقده ♦

لقد ألف كتاب شفاء الغليل فى القرن الحادى عشر
الهجرى حين شعر العلماء بآثار هجوم لغوى على اللغة
العربية من لغات شتى ، وحين أحسوا بالحاجة الى تخليص
لغتهم مما ملأها من الشوائب وتحديد ما عرب فدخلها

بصورة شرعية واضحة •

على أن هذا الكتاب حين يتكلم عن الكتابات الدخيلة الشائعة في عصره يعرض علينا من حيث يقصد أو لا يقصد صورة للحالة الاجتماعية في العصر العثماني والمملوكي وذلك مثلا ذكره لقول العامة صب في القنديل زيتا فهو يبين أنها كناية عن الرشوة •

وبعد ذلك ماذا نستفيد من كتاب شفاء الغليل ؟

يوقف القارئ على ما في لغتنا من الدخيل والمولد ومقدمته وافية كافية في موضوع الإعجمي ، وما يتعلق به من مباحث واستعراض جميل لآراء العلماء الثقاة فيه ، وهو يحفل بكثير من الطرائف الأدبية والنوادر والملح والفكاهات فضلا عن كثرة الأشعار التي استشهد بها والتي تمتد فتشمل الشعراء منذ العصر الجاهلي حتى عصر المؤلف عن الألفاظ الأعجمية في القرآن الكريم غاية الغايات في هذا الباب •

العمدة .. لابن رشيق

كان أبوه صائغا ، يصوغ من المعادن النفيسة حليا وتحفا فيها من الفن ودقة الصناعة وجمال المنظر الشيء الكثير .

حياته كالقصص الغريبة ، فقد ولد بقرية اسمها السيلة ، وأخذ يتعلم صناعة أبيه ، وكان به ميل الى الشعر والأدب ، فأخذ يسمع ويقرأ ويروى ثم ارتحل الى القيروان في أوائل القرن الخامس الهجرى ، وهناك ظهر اسمه ، وعرفته محافل الأدب ومجالس الأمراء والوزراء ، شاعرا رقيق الشعر ، لطيف الحديث .

ثم وقع في القيروان ما أوجب هجرته الى صقلية فهاجر اليها ، وعاش بها طويلا الى أن مات بقرية مازر احدى قراها وعمره ثلاث وسبعون سنة .

هذا هو أبو علي الحسن بن رشيق القيروانى (٣٩٠ - ٤٦٣ هـ) الذى بدأ حياته صائغا للذهب والفضة ثم انتهى

به الأمر الى أن صار صائفا لجواهر الكلام ، نذكره هنا ونذكر كتابه « العمدة في صناعة الشعر ونقده » وهو كتاب يعتبر من أعيان الكتب التي ألفت في القرن الخامس الهجرى في الأدب والشعر •

وينتسب ابن رشيق الى أب كان مملوكا روميا ، يحترف صناعة صياغة المعادن النفيسة كما قلنا ، ويرتفع الحظ بأبيه حتى يصير من كتاب ديوان (المعز بن باديس الصنهاجى) خليفة الفاطميين على أفريقيا ويصبح من أشهر أهل زمانه في عالم الأدب •

ولابى الحسن ابن رشيق كتب حسان أهمها وأشهرها كتاب « العمدة » الذى ذكرناه آنفا ، ومنها « قراضة الذهب » في النقد ، ومنها (انموذج الزمان في شعراء القيروان » ومنها « ميزان العمل في تاريخ الدول » و « شرح موطأ مالك » وألف كتابا في تاريخ القيروان وكتابا آخر في السرقات الشعرية •

واستكمالا لمعرفة ابن رشيق نذكر أنه شاعر ، وأن له ديوانا من الشعر منه قوله في المودة والوداء •

أحب أخى وان أعرضت عنه
وقلّ على مسامعه كلامى
ولى في وجهه تقطيب راض
كما قطبت في وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض
وبغض كامن تحت ابتسام

ومن فكاهاته قوله وقد هاجمه البعوض ذات ليلة :
يارب لا أقوى على دفع الأذى
وبك استعنت على الضعيف الموزى
مالى بعث الي ألف بعوضة
وبعث واحدة الى نمروذ

وحين بلغ الخامسة والأربعين ، بكى على الشباب وشكا
المشيب وقال في ذلك معنى يقول عنه ابن خلكان انه معنى
غريب ، قال :

إذا ما خففت كعهد الصبا
أبت ذلك الخمس والأربعونا
وما ثقلت كبرا وطأتى
ولكن اجر ورأى السنينا

ولابن رشيق فوق ما تقدم كتاب اسمه « الشذوذ » في اللغة ، ويذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها وهو يدل على سعة علمه •

يقول في مقدمة كتاب العمدة :

(أما بعد فقد وجدت الشعر أكبر علوم العرب وأوفر حظوظ الأدب ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان من الشعر لحكمة » •

وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه « نعم ما تعلمته العرب الايات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته ، فيستنزل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم » •

ثم يتابع حديثه في المقدمة فيقول : ولقد وجدت الناس مختلفين في الشعر متخلفين عن كثير منه فجمعت أحسن ما قال كل واحد منهم في كتابه ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، وعولت في ذلك على قريحة نفسى ونتيجة خاطرى وخوف التكرار ورجاء الاختصار •

لقد استهل المؤلف كتابه بفصل ممتع في بيان فضل الشعر وفي هذا الفصل يتحدث عن اشتقاق كلمة الشعر

فيقول ، فتوهما أعاريض - ويقصد بها التفاصيل - جعلوها موازين للكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم شعروا به أى فطنوا •

ثم ردّ على من يكره الشعر فروى شعرا للخلفاء والقضاة والفقهاء ، وذكر من رفعه بيت من الشعر ، ومن وضعه بيت ، تكريما للشعر وازهارا لأثره وبعد قليل أخذ يتحدث عن البلاغة ما هي ؟ وعن الإيجاز والاطناب والمساواة وعن المجاز والاستعارة ، والتمثيل يعنى بذلك تصوير المعانى في صور استعارية رائعة ، ويستمر في الحديث عن ألوان انبلاغة في الكلام حديث العالم المتمكن الحجة

فاذا انتهى من استعراض ذلك والتمثيل له ، وشرحه الشرح الوافى الشافى عاد الى حديث الأدب العام وترك علوم البلاغة فاذا هو يتحدث عن أشهر الكتاب ، ويقول ان الكتاب - أى الذين يكتبون النثر - أرق الناس في الشعر طبعا وأملحهم تصنيعا وأحلاهم الفاظا ، وألطفهم معانى وأقدرهم على تصرف وأبعدهم من تكلف وقد قيل الكتاب دهاقين الكلام • ويروى بيتين من الشعر قالهما الكاتب « ابراهيم الصولى » بين يدى الخليفة المتوكل حين أحضر

لمناظرته أحمد بن المدير فقال ارتجالا :

صدّ عني وصدق الأقوال
وأطاع الوشاة والعذالا
اتراه يكون شهر صدود
وعلى وجهه رأيت الهلالا ؟

فطرب المتوكل واهتز وأعطاه جزيلا وخلع عليه ثيابا
وأعطاه ركائب وجدد له ولايته •

وهو بعد ذلك أخذ يستعرض فنون الشعر وأغراضه
المختلفة من نسب ومديح وفخر ورثاء وعتاب وهجاء
واعذار ، ولما كان كتابه يتحدث عن نقد الشعر فقد عرض
لبعض عيوب المعاني ، وذكر الشعر المتكلف والركيك
والضعيف ، وخصّ السرقات الشعرية بحديث يدل على
أصالة الرأي وحسن الفهم •

الحق أن كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن
رشيق القيرواني من أحسن الكتب في بابيه ، وهو يعد كتابا
متخصصا في الحديث عن الشعر من نواح كثيرة •

أحياء علوم الدين .. للغزالي

محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، أبو حامد ،
اشتهر بلقب (حجة الاسلام) وهو فيلسوف متصوف ،
له كثير من المؤلفات التي بلغ عددها نحو مائتين ، قال بعضهم
انه الغزالي نسبة الى غزاة وهي ضاحية من ضواحي طوس
بخراسان ، وقال آخرون أنه الغزالي بتشديد الزاي ، نسبة
الى غزل الصوف وابن خلكان يقول أن الغزالي بتخفيف
الزاي هو خلاف المشهور •

عاش أبو حامد في القرن الخامس الهجري ، وولد بطوس
في خراسان في منتصف هذا القرن تماما سنة اربعمائة وخمسين
هجرية ، وتوفي في السنة السادسة من القرن السابع أي أن
حياته لم تطل أكثر من ست وخمسين سنة ••

كان هذا العصر الذي عاش فيه الغزالي عصرا بلغت فيه
الدراسات الاسلامية غاية النضج ، وكذلك الدراسات
الأدبية واللغوية وهي في أصلها قد نشأت لخدمة القرآن

العظيم والحديث الشريف ، وفي هذا العصر رفدت هذه الدراسات الاسلامية والأدبية روافد من ثقافات الأمم الأخرى ، من هند وفرنس وروم ، وجاءت مع هذه الروافد نزعات من الالحاد والشك ، وتعالى سفسطة المنطق ونظريات الفلسفة بالجدل في أصول العقائد ونشأ ما يدافعها من علوم الكلام .

عاش الغزالي في هذا العصر ، ووعى ثقافته وحضارته ، وكان أبوه رجلا فقيرا صالحا يحب العلماء أعظم الحب ويجلهم أعظم التبجيل ، وكم تمنى على الله أن يرزقه بولد صالح ينفع به الله عباده في الوعظ والتعليم وجلاء بصائر الناس بالهداية ، وكان يعمل بيديه ليكسب رزقه من غزل الصوف والى هذه الصناعة نسب وأخذ أبنائه من بعده هذا النسب ولقد رزقه الله بولدين صالحين ، صار كل منهما عالما واعظا معلما .

أما أكبرهما فهو أحمد بن محمد الغزالي ، الملقب ببجد الدين الغزالي له لفتات جميلة في التفسير ، تلا أحد القراء أمامه قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » .

فقال : شرفهم بياء الاضافة الى نفسه بقوله (يا عبادى)
ثم انشد يقول :

وهان علي اللوم في جنب جها
وقول الاعادى انه لخليع
اصم اذا نوديت باسمى واننى

اذا قيل لى يا عبدها لسميع
أما أصغرهما فهو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي
وهو موضوع هذا الحديث ، ونستعرض أولا كتبه حتى
نصل الى الاحياء وهو غايتنا من هذا الفصل •

ان كتبه كثيرة أولها وأشهرها « أحياء
علوم الدين » ، ثم « تهافت الفلاسفة »
وهو كتاب ينحى الغزالي فيه على آراء الفلاسفة ونظرياتهم
بالحجج والنقص وهو صريح في هذا الكتاب بان غرضه من
تأليفه هو هدم الفلسفة وزعزعة ثقة الناس بها ، وليبان أنها
عمل غير ناجح ، ثم يأتى كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد)
و (القسطاس المستقيم) و (المنقذ من الضلال) و (الجام
العوام عن علم الكلام) وله كتاب اسمه (ياقوت التأويل في
تفسير التنزيل) قيل أنه فى أربعين مجلدا •

أما كتاب أحياء علوم الدين ، فيقول الغزالي في مقدمته :

(فاما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ،
مما سماه الله تعالى في كتابه فقها وحكمة وعلماء وضياء ونورا
وهداية ورشدا فقد أصبح من بين الخلق مطويا ، وصار
نسيا منسيا ، ولما كان هذا ثلما في الدين ملما ، وخطبا
مدلما ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما ، احياء
لعلوم الدين ، وكشفا عن مناهج الامة المتقدمين ، وايضا
لمناحي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين) •

ثم قال : وقد أسسته على أربعة أرباع وهى ربع
العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات وربع المنجيات ،
وصدرت الجملة بكتاب العلم لانه غاية المهم ، وكل ربع من
هذه الارباع يحتوى على كتب أى أبواب ، فربع العبادات
مثلا فيه عشرة كتب هى كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ،
وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب
أسرار الزكاة ، وكتاب الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب
آداب تلاوة القرآن وكتاب الاذكار والدعوات وكتاب
الأوراد في الأوقات •• وكل ربع من الارباع يشتمل على
عشرة كتب •

وعلى سبيل التمثيل نذكر ما قاله في كتاب أسرار الطهارة

عن اللحية وما يكره فيها ، من ذلك : خضابها بالسواد ،
وتبييضها بالكبريت ، وتنفها وتنف الشيب منها والزيادة فيها
وتسريحها تصنعاً لأجل الرياء ، وتركها شعثة اظهاراً للزهد ،
والنظر في سوادها عجباً بالشباب ، والى يياضها تكبراً بعلو
السن وخضابها بالحررة والصفرة من غير نية تشبهها
بالصالحين ، وفي هذا المجال يذكر الغزالي كل ما ورد عن
الحية في الأحاديث الشريفة وما أثر عن السلف الصالح بل
ما قاله الشعراء في الموضوع أو قريباً منه كالحديث الشريف
(خير شبابكم من تشبه بشيوخكم وشر شيوخكم من تشبه
بشبابكم) •

والحق أن هذا الكتاب موسوعة حافلة بالأحاديث
الشريفة ، في كل غرض قصد اليه وبآيات القرآنية في كل
مقصد قصده بل أنه كثيراً ما يقص القصص التي تستلزم
بالحكمة والموعظة الحسنة •

ولعل من تمام الحديث عن الغزالي أن نقول أنه اشتغل
بالتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ، بناء على طلب من
الوزير نظام الملك ، وعلى أثر مناظرة ممتعة شهدتها الوزير
بين الغزالي وبين بعض العلماء ، وكانت سنة آنذاك لم تبلغ

الأربعين • وبقي بها أربع سنوات ثم اختار أن يسلك طريق
الزهد والتصوف ، وقصد الحج وتوجه الى الشام ، وأقام
بدمشق ومنها رحل الى بيت المقدس ثم قصد مصر ، وأقام
بالاسكندرية مدة ثم عاد الى بلده طوس وصرف بقية حياته
الى تحفيظ القرآن الكريم والتدريس ومجالسة أهل القلوب
وأصحاب الزهد •

بدائع البدائه .. للآزدي

في القرن السادس الهجري ، كانت الدراسات الأدبية قد نضجت غاية النضج ، وكثرت المؤلفات المختلفة في فنون اللغة والأدب والتاريخ ، وامتألت تلك المؤلفات بالطرائف والنوادر مما يحسن أن يحفظه السمار والندماء ليزينوا به مجالس الامراء والوزراء والعلية من الناس •

ومن الكتب التي ألفت في هذا العصر ، كتاب « بدائع البدائه » للوزير المصري (علي بن ظافر الآزدي) ، من وزراء الملك الأشرف ، فقد جمع هذا الكتاب كثيرا مما تفرق في كتب الأدب ، ككتاب الأغاني لأبي الفرج الإصصهاني ، وبتيمة الدهر للشعالبي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه وغيرها •

هذا الكتاب « بدائع البدائه » ألفه الوزير الآديب جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الآزدي ، وزير الأشرف أحد ملوك بني أيوب ، وقد ولد ابن ظافر في القاهرة سنة سبع وستين وخمسائة ، وكان أبوه عالما فتخرج على يديه ،

وقرأ الأدب والأصول والتاريخ وأخبار الدول والملوك ،
ثم أسلمه أبوه الى المدرسة الكاملية التى بناها بمصر الملك
الكامل الايوبى •

وكانت الفترة التى عاش فيها بمصر من أخصب الفترات
في تاريخها بالادباء والشعراء وأهل الادب فمن معاصريه
« عبد الرحيم البيسانى » المعروف بالقاضى الفاضل وزير
صلاح الدين الايوبى ، و « ابن ممتى » ناظر الدواوين
بالديار المصرية ، والشاعر المشهور ، و « ابن سناء الملك »
الشاعر الوشاح المشهور ، والعماد الاصبهانى الكاتب
المقتدر •

وحين صار الملك الاشرف ابن الملك العادل ملكا على
جزء من بلاد الشام ، سحب معه « ابن ظافر الازدى » ،
وولاه الوزارة ، وأكرم منزلته ، ولكن ابن ظافر لم يطق
البعد عن القاهرة ومجالسها الادبية ، وماله فيها من صداقات
ومودات ، وما كان يجرى بينه وبين زملائه من الشعراء
والكتاب فيها من المساجلات والمداعبات أو قل ان أعباء
الوزارة قد شغلته عن الأدب ، فתרجم بالوزارة ، وكره
المناصب ، فتمنى لو استطاع أن يفلت من قيودها •

وذكر ذلك في كتابه فقال : كان يصحبنى وأنا في خدمة
الملك الاشرف ابقاه الله رجل كاتب حسن الخط ، من أهل
العلم والخبرة ، هاجر الى دمشق يقال له : جمال الدين
على بن ابي طالب فلما رأيت ما أنا عليه من الأحوال
والاختلال ونويت في نفسى الانفصال كنت ليلى ونهارى
مكبا على الدعاء بتسهيل ذلك وتعجيله وتيسير ما أرجوه
منه ، وأقمت على ذلك مدة طويلة بحيث كان الأمر مشهورا
عند كل أحد من الحاشية فاخبرنى أنه بات مشغول القلب
لما يسمعه منى فرأى في منامه كأنه في جامع دمشق تحت
النسر ، واذا رجل شاب قد أقبل من الباب الغربى فقال له
الشيخ يا أبا العباس ، أجز :

ان ابن ظافر سوف يظفر

بالذى يرجوه عاجل

فقال :

ظفرت عداه بخيئة

وغدا لما قد شاء عاجل

فسررت بذلك فلم يكن بأسرع من عودة الملك الاشرف

من دمشق وانفصالى من خدمته على الوجه الجميل ♦

وعاد الى القاهرة على جناح السرعة وتفرغ للكتابة
والتأليف حتى مات سنة ثلاث عشر وستمائة وكان عمره
اذ ذاك لا يجاوز ستا وأربعين سنة ♦♦

ومع أنه لم يعمر ، ولم يعيش طويلا الا أنه ترك لنا تواليف
كثيرة منها كتاب « بدائع البدائه » و « أخبار الدولة
السلجوقية » و « أخبار الشجعان » وكتاب فى الأدب اسمه
كتاب « التشبيهات » وله كتاب آخر اسمه « اخبار الدول
المنقطعة » وقد جمع فيه اخبار الدول الاسلامية وحروبها
وحوادثها ، ووضع فيه كثيرا من الأشعار والطرائف ، ورتبه
على حسب السنين الهجرية ، وفيه تواريخ الحمدانيين
والفاطميين والطولونيين والاخشيديين ودول الاندلس •

ذكر ابن ظافر أنه ادار كتابه على فصلين وخمسة أبواب
اما الفصلان فأحدهما فى بحث اشتقاق البديهة والارتجال،وقد
ذكر أن البديهة مشتقة من بده ييده بمعنى بدأ يبدأ أبدلوا
الهمزة هاء لقربها منها ، أما الارتجال فمأخوذ من قولهم
ارتجل البئر وهو أن ينزل الرجل برجليه من غير حبل ،
فكأنهم شبهوا اقتدار الشاعر على القول من غير فكرة
ولا أهبة باقتدار نازل البئر على النزول من غير حبل ،

ولا آلة • أما الفصل الثانى فقد خصصه لشرح الفرق الفنى بين البديهة والارتجال وفي رأيه أن الارتجال هو القول بسرعة وان البديهة دون ذلك •

أما أبواب الكتاب فالأول في بدائع الاجوبة ويعنى رد الشاعر على زميله بجواب شعرى دون اعداد سابق ، والباب الثانى في بدائع الاجازة والاجازة أن ينظم الشاعر على شعر غيره في معناه ما يكون به تنمة وكماله ، ومن ذلك أن عمر بن ابي ربيعة قال شطرا من الشعر هو : تشط غدا دار جيراننا (تشط أى تبعد) فأجازه عبدالله بن عباس على الفور : و(للداربعد غد ابعد) وخص الباب الثالث بدائع التمليط وهو كما عرّفه ابن ظافر أن يجتمع شاعران فأكثر على تجريب خواطرهم فى معنى واحد واشتقاقه من الملاط أى الطين يدخل فى البناء ، ويملط به الحائط تمليطا ، وهكذا يسير الكتاب فيروى بدائع البدائه فى كل حالاتها ولا ينسى ابن ظافر نفسه فيروى اشعاره وبدائيه فى موقعها من فصول الكتاب وأبوابه •

الحق أن هذا الكتاب يدل على سعة علم وقوة حافظة ثم يكشف عن جانب البديهة والارتجال فى أشعار الشعراء فى مختلف الظروف والمناسبات •

مقامات بديع الزمان والحريري

في القرن الثالث الهجري ، رحل الى نواحي فارس عالم راوية لغوى اديب هو أبو بكر بن دريد الازدي ، ليتقلد رئاسة ديوان الكتابة لال (ميكال) الذين كانوا ولاية لتلك البلاد من قبل المقتدر الخليفة العباسي ، وكان لابن دريد هذا صيت بعيد في الادب والعلم وهناك مدح الولادة بقصيدة مشهورة تسمى « مقصورة ابن دريد » سميت بذلك لان قافيتها على الالف المقصورة وأولها :

ياظبية أشبه شيء بالمها

ترعى الخزامى بين أشجار النقا

وألف ابن دريد لابناء ميكال كتابه الشهير « الجهرة »

وهو من كتب اللغة المعتبرة •

وفي بلاد فارس سمع ابن دريد فنا من الكلام ، مبناه على القصة فأحَبَّ أن يعارضه بفن من الكلام العربي ، فأنشأ اربعين حديثا، ولكنه ما سماه المقامات ، أما الذي اطلق عليها

هذا الاسم فهو بديع الزمان الهمداني الذي صنع صنيع
ابن دريد وعارضه ، أو هو قد عارض من عارض ابن دريد
وهو الحسن بن فارس استاذ البديع •

لكن مقامات ابن فارس وقبلها مقامات ابن دريد قد
ضاعت ، ولم تبق الا مقامات بديع الزمان ، أو على الاصح
نحو خمسين مقامة منها ، فظن أن البديع هو أول من ادخل
هذا الفن الادبي في لغة العرب •

وأصل المقامة في اللغة موضع القيام ، وقد استعملت في
موضع الجلوس استعمال الاضداد ، وروى اللغويون في ذلك
قول الشاعر :

والمسك ترب مقاماتهم
وترب قبورهم أطيب
كما روى قول زهير بن ابي سلمى المزني :

وفيههم مقامات حسان وجوههم
واندية يتناهبها القول والفعل
والملاحظ في بيت زهير أن المراد بالمقامات الجماعة
الجالسين فيها •

ثم تطور معنى المقامة بعد أن انتقل من المكان الى
الجالسين فيه ، فانتقل الى الكلام الذى يقال في المجلس •

بنى بديع الزمان الهمداني مقاماته على (الكدية)
أى الاحتيال على طلب الرزق ببعض الحيل الادبية ، ولعله
أخذ ذلك مما كان منتشرا منها في بلاد الفرس وأواسط
آسيا في ذلك الحين ، اذ كان يطوف بالمدن والقرى ابناء
سبيل وحواة ، وأصحاب قردة ، وسحرة ، ومشعوذون
ممن كانوا يتحيلون في جلب الرزق ولكن من طريق الامتاع
بقص الاخبار ورواية الاشعار والمناظرة والتهاجى والمدح
ونحو ذلك •

وجعل الهمداني الحديث لرجلين تخيلهما ، احدهما شحاذ
أديب هو « أبو الفتح الاسكندري » والثانى راوية هو
« عيسى بن هشام » • أما أبو محمد القسام بن على الحريرى
فقد حذا حذو الهمداني فادار الحديث على لسان راوية
سماه الحارث بن همام ، وشحاذ سماه أبا زيد السروجى •

وكل من الاديبين العظيمين الحريرى والهمداني ، قد
جعل الشحاذة عنصرا أصيلا في المقامات ، وكل منهما قد بثّ
في مقاماته ابياتا من الشعر ومقطوعات وقصائد ، وكل منهما

قد صاغ الاسلوب بحيث يبرز قدرة صاحبه على امتلاك
ناصية اللغة وحفظ مفردات اللغة وشواردها وأيام العرب
وأسواقهم وأمثالهم •

لكن النقاد يقولون ان البديع قد املى مقاماته ارتجالا
أو في حكم الارتجال بنيسابور ، مع أنه ذكر فيها الغازا
تحتاج الى الروية كسؤاله عن بيت من الشعر نصفه يغضب
ونصفه يلعب وهو بيت عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم
مخاريق بأيدي لاعيننا
وكسؤاله عن بيت مهين بحرف ورهين بحذف وهو
يعنى قول ابى نواس :

لقد ضاع شعري على بابكم
كما ضاع عقد على خالصة !

وجاء الحريري بعده فاعجبته حكاية الالغاز فصرف اليها
خمسا من مقاماته الخمسين هي الفرضية في مسألة من مسائل
الميراث ، والنحوية في لغز نحوى ، والطبية في مائة لغز
طبي والمملطية والشتوية وفيها خمسون لغزا في قصيدة واحدة
أولها :

عندى اعاجيب ارويها بلا كذب
عن العيان فكنّونى ابا العجب

ومن أَلغازها قوله :

وجالسا ماشيا تهوى مطيته
به وما فى الذى اوردت من كذب

وهو يقصد بالجالس الآتى نجدا وبالماشي صاحب
الماشية •

وكذلك قوله :

وبلدة ما بها ماء لمغترف
والماء يجرى عليها كجرى منسرب

وهو يعنى بالبلدة المسافة ما بين الحاجين •

وذكر الحريرى ان شعر المقامات كله من تأليفه ما عدا
بيتين اثنين فقط في المقامة الحلوانية وآخرين في المقامة
الكرجية والبيتان الأولان لابی عبادة البحتري ، والآخرا
لابن سكرة الهاشمى وهو شاعر ماجن •

وقد عنى بشرح المقامات خلق كثير من العلماء والادباء ،
لما فيها من فوائد لغوية ونحوية وبلاغية ، لكننا نرى أنها

من ناحية الفن القصصي شيء ضعيف جدا لا يمكن الاعتداد به في هذا المجال •

وجدير بالذكر أن نلفت النظر ، الى أن المقامات ترجمت الى كثير من اللغات وان عشرات من الشعراء والأدباء عارضوها في مختلف العصور ، حتى العصر الحديث حين جاء الاديب المنشيء محمد المويلحي ، فألف كتابه « حديث عيسى بن هشام » وهو اسم راوية البديع وصاغه على اسلوب المقامات ، ولكن فى موضوعات حديثة ابعدها عن الشحاذة والكدية وادخلها فى وصف المناظر وتصوير الحوادث وتحليل الشخصيات ولكنه التزم بالسجع والمحسنات والتلاعب بالالفاظ اللغوية وان يكن قصر عن الهمذانى والحريرى في هذا المجال •

جيس التوشيح .. رابطة الخطيب

يثور الخلاف بين مؤرخي الآداب حول الموشحات وطبيعتها ، فهل هي فن اندلسي خالص نشأ من منبع عربي خالص بعيد الصلة من منبع الشعر العربي في الشرق أم هو فن متصل بهذا الشعر ، نشأ تحت ظروف البيئة الغريبة الاندلسية وما فيها من جمال وما قام فيها من حضارة موسيقية بلغت الذروة على يدي زرياب الموسيقى الشهير فذهب الكثير من المستشرقين الذين عنوا بالادب الاندلسي ، أن الموشحات فن أندلسي خالص أهدته الاندلس الى الشعر العربي لونا مبتكرا من ألوانه ، وفنا مستحدثا لا صلة له بفنون الشعر القديمة ، ولعل هؤلاء المستشرقين كما يقول العالم الاديب الدكتور مصطفى الشكعة - واقعون تحت تأثير التعصب - الذي يبدو في كتابات كثير منهم •

الذي لا خلاف عليه أن فن التوشيح يقوم على أساس موسيقى هو بعينه الاساس الموسيقى الذي يقوم عليه الشعر ، فلها أوزان تأخذ وحداتها الفنية من تفاعيل الشعر

ووحدهاته الموسيقية فمثلا موشح « جادك الغيث » للسان الدين بن الخطيب وهو من أشهر الموشحات الاندلسية ان لم يكن أشهرها على الاطلاق يسير على وتيرة بحر الرمل ، وقد جاء فيه :

جادك الغيث اذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما
في الكرى أو خلصة المختلس
وهو كما نرى يجيء على وزن « فاعلاتن فاعلاتن فاعلات » .

وقد نشأت الموشحات كما قلنا فى ظل نهضة موسيقية وحضارة عظيمة ، وأول من قال الموشحات في الاندلس رجلان هما : « محمد بن محمود الضرير القبرى » و « مقدم ابن معافر » ، ولكنهما وضعا الأساس ثم جاء بعدهما وشاح عبقرى هو « عبادة بن ماء السماء » الذى نظم الموشحات فنونا ، وفي اغراض شتى ، وعلى مدى قرن من الزمان بعد عبادة ، كان الوشاحون قد كثروا ، وكان فن التوشيح قد بلغ أشده واستوى ، فتمكن « على ابن ابراهيم سعد الخير

البلنس » من تأليف كتاب يترجم فيه لبعض الوشاحين هو كتاب « نزهة الانفس وروضة التأنس في توشيح أهل الاندلس » لكن هذا الكتاب على نفاسة قيمته في تاريخ فن التوشيح قد ضاع مع ما ضاع من التراث الاندلسي ، أيام محنة العرب في الاندلس فلم تبق منه الا اشارات اليه في بعض المصادر التاريخية •

وكانت الموشحات قد سرت الى المشرق فنظمها الشعراء وافتنوا في نظمها كل الافتنان ، والف « ابن سناء الملك المصرى » كتابه القيم « دار الطراز » في عمل الموشحات ، الذى يضم بين دفتيه نحو سبعين موشحا نصفها من نظم الوشاحين بالمغرب ، وتلاه « صلاح الدين بن ابيك الصفدى » فألف كتابه « توشيح التوشيح » لكنه لم يخصص نصفه لأهل المغرب كما فعل سابقه بل انه ذكر في كتابه ستين موشحا لم يذكر منها الا اربعة عشر موشحا مغربية • وهذا هو كل ما عرفنا من حصاد التأليف في الموشحات قبل أن يصنف فيها لسان الدين بن الخطيب كتابه المشهور « جيش التوشيح » الذى يعتبر عمدة الكتب المؤلفة في الموشحات •

« جيش التوشيح » هو أحد مصنفات الوزير العظيم
« محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد السلماني »
الشهير بلسان الدين بن الخطيب وقد ولد في برشلونة وأصل
آبائه من قرطبة ، وقد اشتهر منهم سعيد الجدد الأعلى
بالخطابة فعرفوا ببني الخطيب ، وتوارث الابناء هذا النسب
الكريم ، وصار وزيراً لسلطان غرناطة أو الحجاج يوسف
ابن اسماعيل ثم لابنه الغني بالله ، ووشى به حساده فترك
الاندلس واستقر بإفريقية مكرماً لدى سلاطينها حتى استطاع
الغني بالله أن يظفر به وحوكم وقتل ، ومن أشهر ألقابه
« ذو الوزارتين » و « ذو العمرين » لأنه كان يسهر ليلة
في التأليف ويقضي نهاره في تدبير المملكة ، ومؤلفاته نحو
ستين كتاباً أشهرها « الاحاطة في أخبار غرناطة » و « الكتيبة
الكامنة في أدباء المائة الثامنة » وعلى اسمه صنف المقرئ
« نصح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها
لسان الدين بن الخطيب » • وقد بنى له في المغرب قبر ضخماً
يليق بمكانته في عهد الملك محمد الخامس سنة ١٩٦٤م
وسميت المستشفى القريبة منه مستشفى لسان الدين
بن الخطيب •

ابن الخطيب وشاح عظيم قبل أن يكون مؤر ١٠
للوشاحين أو لفن التوشيح ، وقد اشتهرت موشحاته ومنها
الموشح الذي أشرنا اليه في صدر هذه الحلقة :

جاءك الغيث اذا الغيث همي
يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما
في الكرى أو خلصة المختلس

وهذا الموشح في أصله معارضة لموشح مشهور لابراهيم
ابن سهل الاشبيلي وهو يقول في أوله :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى
قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر وخفق مثلما
لعبت ريح الصبا بالقبس

والمكنس هو مأوى الظباء •

وكتاب « جيش التوشيح » الذي نحن بصدد الحديث
عنه والذي ألفه الوزير لسان الدين بن الخطيب ، كان
مخطوطا حتى عهد قريب حين هيا الله له اديبا عراقيا هو

الشاعر هلال ناجي ، وعالما مغربيا هو الاستاذ محمد بن ماضور فحققاه وطبعاه ولقيا في سبيله مشقة لا يعرفها الا من يعانيتها واستحقا بذلك الشكر اجزل الشكر .

وفي الكتاب مائة وخمسة وستون موشحا ، لستة عشر وشاحا هم ابن بقي ، والاعمى التطيلي ، وابن الابيض ، وابن الليانة ، وابن رافع راسه ، والكميت الاندلسي ، وابن شرف ، والمنيشي ، والصيرفي ، والخباز ، والسرقسطي الجزار ، وابن لبون ، وابن رحيم والوزير الحكيم ابو عامر ، وابن زهر الحفيد واحمد بن مالك .

ومن طريق ما يروى في هذا ان جماعة من الوشاحين اجتمعوا متنافسين لينشد كل منهم موشحا فبدأ الأعمى التطيلي موشحه الذي يقول فيه :

ضاحك عن جمان°

سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان°

فحواه صدرى

فلما سمعه زملاؤه مزقوا ما أعدوه وشهدوا له بالفوز والسبق .

رحلة ابن بطوطة

نعرض اليوم لادب الرحلات ممثلا في رحلة ابن بطوطة وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى اما اللواتى فهي نسبة الى لواتة احدى قبائل البربر ، اما الطنجى ، فهي نسبة الى مدينة طنجة المعروفة التى ولد ونشأ بهاسنة ٧٠٣ هـ .

ورحلات اهل المغرب الى المشرق دائمة ولا تنقطع منذ جاء الاسلام ودخل الناس في دين الله افواجا ، وقام الحج بين اركانه الخمسة فرضا واجبا عند الاستطاعة .

وهكذا بدأت رحلة ابن بطوطة وبدأت رحلات غيره كابن جبير اذ كان الحج الى بيت الله الحرام وزيارة تلك الديار المقدمة هو الباعث الاول على الرحلة لكن ابن بطوطة لم يقم بالحج وكفى بل هاجت رحلة الحج شغفه بالرحلة فاندفع يوجب أرجاء العالم المعروفة فى ذلك الحين ، ولم يفته ان يدوّن ما رأى من المشاهد والعجائب والمناظر التى استهوته وملأت نفسه متعة وسعادة بل دوّن

من ذلك أوراها يسكن ان تتخذ اصولا لكتاب يضعه في وصف
ما رآه بعد العودة الى بلاده والقاء عصا التسيار .

وفي الحق ان ابن بطوطة لم يقيم برحلة واحدة بل
هو قد قام بثلاث رحلات استغرقت ما يكاد يقرب من نصف
عمره ، نعم فقد شغلت نحو ثلاثين سنة من حياته التي بلغت
ثلاثا وسبعين سنة ولكن أطول هذه السفرات الثلاث هي
التي حواها كتاب رحلته وقد طوّف فيها بأرجاء الشرق
والغرب ، ولم يترك ناحية منهما الا زارها وقضى زمنا طويلا
من هذه السفرة في الهند ، حين تولى القضاء سنتين
وفي الصين حين تولى القضاء سنة ونصف السنة ، بل انه
شارك في بعض الحروب ووقف بين الصفوف يرمى بالنشاب
ويهاجم الاعداء .

انه يذكر في ثنايا ذكره لبلاد الهند تحت عنوان « ذكر
غزوة لنا بهذا الطريق وهي أول غزوة شهدتها بلاد الهند »
ما يأتي :-

« ولما اردنا السفر من مدينة ابوهر ، خرج الناس منها
أول النهار ، أقمت بها الى نصف النهار في لمة من
اصحابي ، ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا منهم عرب
ومنهم اعاجم فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلا

من الكفار فارسان ، وكان اصحابي ذوى نجدة وعتى
فقاتلناهم اشد القتال فقتلنا احد الفارسين منهم ، وغنمنا
فرسه قتلنا من رجالهم نحو اثنى عشر رجلا ، واصابتني
نشابة ، واصابت فرسى نشابة ثانية ومّن الله بالسلامة منها
لان نشابهم لاقوة لها وجرح لاحد اصحابنا فرس
عوضناه له بفرس الكافر الذى غنمناه ، وذبحنا فرسة
المجروح فأكله الترك من اصحابنا » •

وفى الهند ذكر عادة احراق الموتى بالنار ، ووصف
ذلك وصفا تفصيليا دقيقا ذكر فيه ما يجرى خلال ذلك من
الطقوس ومن غير المستطاع ان نذكر كل ما ذكره من العجائب
فى هذه الرحلة لكننا نستطيع ان نذكر خط السير فقد خرج
من طنجة ومر بتونس ، ورأى الاسكندرية ومنازلها ،
وزار القاهرة ورأى النيل والاهرام ، وزار القدس وقبة
الصخرة ، ومّر على لبنان ثم سوريا ورأى دمشق وجبل
قاسيون ، وذهب الى المدينة المنورة ، ووصف المسجد النبوى
وصفادقيقا وافيا ، وذهب الى مكة وذكر الكعبة والحجر
الاسود وبئر زمزم ، ومضى الى العراق ورأى بغداد
والكوفة والموصل ، وزار مقدشو وظفار والقسطنطينية

وخوارزما وبلاد ما وراء النهر : ثم الهند ثم الصين موفدا
اليها برسالة من احد سلاطين الهند كأنه سفير فوق
العادة .

يقول : وبعث الي السلطان خيلا مسرجة وجواري
وغلمانا وثيابا ونفقة ولبست ثيابه وقصدته وكان لى جبة
قطن زرقاء مبطنة لبستها ايام اعتكافى فلما جردتها ولبست
ثياب السلطان انكرت نفسى وكنت متى نظرت الى تلك الجبة
اجد نورا فى باطنى ولم تزل عندى الى ان سلبنى الكفار
فى البحر ولما وصلت الى السلطان زاد فى اكرامى وقال لى
انما بعثت اليك للتوجه عنى رسولا الى ملك الصين فانى
اعلم حبك للاسفار والجولان .

وقد أسر ابن بطوطة فى بعض سفراته داخل بلاد الهند
وذكر بهذه المناسبة ملاقاه من المصاعب والاهوال فى
رحلاته ولكنه كان يضحى بكل شىء فى سبيل حبه للرحلات
وعشقه للاسفار للبحث عن الغرائب والعجائب حيثما كانت .

ولا سبيل للحديث عن أسلوب ابن بطوطة فى كتابه هذا
لأن هذا الاسلوب الذى كتبت به الرحلة ليس له ولكنه
لرجل آخر اسمه « محمد بن جزى » وتفصيل ذلك ان ابن

بطوطة حين عاد من رحلته الى مدينة فاس وتسامع الناس بعجائب ما رأى ، وما سجع وما حدث له ، وذكر ذلك للسلطان ابي عنان احد ملوك بني مرين بالمغرب امره السلطان ان يدوّن رحلته وجلس احد الكتاب من حاشية السلطان الى جانبه « محمد بن جزى » وقد كتب ابن جزى تقديما للرحلة يدوّن ما يسلية عليه ابن بطوطة ، وكان هذا الكتاب هو « محمد بن جزى » وقد كتب ابن جزى تقديما للرحلة قال فيه :

« ونقلت معانى كلام الشيخ ابي عبد الله - يقصد ابن بطوطة بالفاظ موفيه للمقاصد التى قصدها موضحة للمناحى التى اعتسدها وربما اوردت لفظة على وضعه فلم اخل بأصله ولا فرعه » .

وهكذا يتضح ان ابن بطوطة لم يكتب هذا الكتاب المضاف اليه وانما املى معانيه على ابن جزى فصاغه من عنده وربما كان العنوان الذى وضع للكتاب من عنده ايضا وهو « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » وقد ترجم الى لغات عدّة ونشر بها وتلقبه جسيعة كامبردج فى كتبها واطاليسها بامير الرحالين المسلمين .

الكاتب .. والكتاب



أما الكاتب .. فهو الأديب الشهير
الأستاذ الشاعر العوضي الوكيل .
ولد بمصر في ١١ أبريل ١٩١٥ م . ونال
شهادة دار العلوم سنة ١٩٣٧ وتدرج
في وظائف حكومية عديدة الى أن وصل
الى درجة وكيل وزارة .

● له أكثر من ثلاثين مؤلفا بينها عشرة دواوين شعرية .
ونال جائزة الشعر التشجيعية سنة ١٩٦٩ ، كما نال وسام
العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٧٠ . وزار معظم
البلاد العربية .

أما الكتاب .. فتعريف موجز بكثير من أهميات الكتب
العربية .. في عرض جيد هو عرض الأستاذ الفاهم الدارس ،
المطلع .. الذي اطلال صحبة الكتب ، وتوثقت بينه وبين
مؤلفيها صلات ألفة دائمة

